

المكتبة العالمية للفتيان والفتيات

- سلسلة كتب جديدة للمطالعة تلبي حاجة الفتيان والفتيات في المرحلتين الابتدائية والمتوسطة.
- اشرف على تلخيصها عن روائع الادب العالمي نخبة من كبار الكتاب العرب.
- اخراج جديد. لوحات بالالوان تجليد فاخر.

صدر منها:

1. ١ – روبنسون كروزو
2. ٢ – كوخ العم توم
3. ٣ – آخر ايام بومباي
4. ٤ – جزيرة الكنز
5. ٥ – البؤساء
6. ٦ – دايفيد كوبرفيلد
7. ٧ – حول العالم في ثمانين يوما
8. ٨ – قصة مدينتين
9. ٩ – أوليفر تويست
10. ١٠ – الزنبقة السوداء
11. ١١ – القلعة
12. ١٢ – مرتفعات ويذرنغ
13. ١٣ – الفرسان الثلاثة
14. ١٤ – آيفنهو
15. ١٥ – دون كيشوت
16. ١٦ – بائعة الخبز
17. ١٧ – أحدب نوتردام
18. ١٨ – طفل من غير اسرة
19. ١٩ – كولومبا
20. ٢٠ – تمرّد على السفينة باونتي

المكتبة العالمية
للفتيان والفتيات

كولومبا

تأليف
بروسبير ميريميه

تعريب وتلخيص
أكرم الرافعي

دار العلم للملايين

ص.ب ١٠٨٥ - بيروت
تلفون: ٢٠٢٤٥٠٢-٢٢٤٥٠٢-٢٩١٠٢٧

جميع الحقوق محفوظة

لدار العلم للملايين

الطبعة الثانية

نيسان (ابريل) ١٩٨٠

١ . مشروع مشوِّق

في الأيامِ الأولى من شهر تشرينَ الأوّل عام ألفٍ وثمانمئةٍ و... وصل إلى مرسيليا العقيد (الكولونيل) توماس نيڤـل - وهو ضابـطٌ ممتـازٌ من ضُبّاط الجيش الانكليزيّ - عائداً وابنتَهُ من رَحْلَةٍ في إيطاليا. فنَزَلَ في فندق، بوڤو.

وفي اليومِ التالي لوصولهِ، دعا إلى العشاء النقيب (الكابتن) إيليس معاونَهُ السابق، الذي كان عائداً من زيارة لكورسيكا دامتْ أسبوعَيْن. وقد روى النقيب لابنة العقيـد، الآنسة ليديا، بطريقةٍ جدِّ مُشَوِّقةٍ، قصّةً عن اللصوص تختلفُ كلَّ الاختلافِ عن حكاياتِ قُطّاعِ الطُرُق التي سمعتْهَا، خلالَ سفرها، بين روما ونابولي.

وبعد العَشاء بقي الرجلانِ وحدهُما، أمامَ زجاجاتٍ من نبيذ بوردو الفاخر؛ وراحا يتحدّثان عن الصّيد. وعرَفَ العقيد من ضيفه أنه لا يوجدُ بلدٌ في العالم يُضاهي كورسيكا من هذه الناحية، سواءٌ من حيثُ جَوْدةٌ

الطرائد، أو تنوُّعها، أو وَفْرتُها. ومضى النقيب إيليس يقول:

«إنّكَ لتجدُ فيها عدداً لا يُحْصَى من الخنازيرِ البرِّية؛ ولكنها تُشْبِهُ الخنازيرَ الأليفةَ إلى أبعد حدّ.. وحذارِ ألاّ تفرِّق بينها؛ لأنك إن قتلْتَ خنزيراً أليفاً خلقْتَ لنفسكَ مُشكلةً صعبةً مع الرُّعاة. ففي مثل هذه الحالة يَخرجونَ عليكَ من الأدغال، التي يَدْعونها، ماكي، فلا تشعُرْ إلاّ وقد انتصبوا أمامك بالسِّلاح الكامل.. فيتقاضون ثمنَ الخنزير ويَهْزأونَ بك! وتجدُ كذلك الخَرُوفَ البرّيَّ وهو حيوانٌ عجيبٌ لا تعثُرُ عليه في أيِّ مكانٍ آخر. ولكنه عسيرُ الاصطياد بقدْرِ ما هو ممتاز. وإلى جانب هذا وذاك تجدُ الوعولَ والظباءَ والدجاج البرِّيَّ والحِجْلانَ، وما لا يُحصى من أنواع الطَّرائدِ التي تَزْخَرُ بها كورسيكا. فإن كنتَ، يا سيدي العقيد، تحبُّ الصَّيْدَ فعليكَ بالذّهاب إلى كورسيكا. فهناك تستطيعُ – كما قال أحدُ الذين ضَيَّفوني – أن تَصيدَ كلَّ صنف، ابتداءً من السُّماني وانتهاءً بالإنسان!»

ولدى تناوُلِ الشاي أتحَفَ النقيبُ الآنسة ليديا بقصّةٍ أخرى من قصص الثأر في كورسيكا أشدَّ غرابةً من القصة الأولى. وتأتي غرابتُها من حيثُ أن صاحبَ الثأرِ لم يَقْتَصّ من المسؤولِ الاصيل، بل من أحد أقاربه وزاد من إثارة

اهتمامها بكورسيكا، عندما أخذ يَصِفُ لها تلك البلاد العجيبة، وما تَتَّسِمُ به طبيعتُها من مَظهرٍ وحشيٍّ غيرِ مألوف، وما يتّصِفُ به أهلُها من الأَرْيَحيّةِ والكرم، وكذلك ما يَخضعون له من التقاليدِ البدائيّة.

وقدّمَ إليها آخرَ الأمر خَنْجراً جميلاً أهداهُ إليه أحدُ الخارجينَ على القانون. لم تكُنْ قيمةُ هذا الخَنْجر في شكله أو نوعِه، إذ كان، بمقبضِه النحاسيّ، أقربَ إلى الخناجر العادية، بل لأنّه كان مِلْكاً لمتمرِّدٍ شهير مرهوب الجانب. ولأنه انغرزَ في أربعة أجسام بشرية. فأعادتْهُ ليديا إلى حيثُ كان من مِنطقَتِه الخاصة، وأخذَتْهُ إلى حجرة نومها، ووضعَتْهُ على المِنضدَةِ بجانب سريرها. وقبل أن تنامَ في تلك الليلة، أخرجَتْهُ أكثرَ من مرةٍ من قرابهِ لتنظرَ إليه.

أما العقيد فقد رأى في الحُلْم أنه قتلَ كَبْشاً برّياً وأن صاحبَهُ طالبَهُ بثمنِه، فسارَعَ، هُوَ إلى دفْعِ الثمن طَواعيةً، دونَ أيِّ تردُّدٍ، وأخذَ ذلكَ الحيوانَ العجيبَ، الذي يُشْبِهُ الخنزيرَ، إلا أن له قروناً كقرون الأيائل، وذيلاً كَذَيْلِ الظّبي.

في صباح اليوم التالي، قال العقيد لابنته، وهما يتناولان طعام الفطور:

«لقد روى لي ايليس أن الصيد مُمْتِعٌ في كورسيكا.. لكم كنتُ أحبّ أن أقضيَ فيها أسبوعين، لو لم تكن بعيدةً!»

– «وماذا يَهمُّ ذلك؟! هيا بنا نزورُها! ففي الوقت الذي تصطادُ فيه، أعكُفُ أنا على الرسم.. إنني سأكونُ في غاية السعادة عندما أضيفُ إلى مجموعة رسومي رَسْمَ الكهفِ الذي تحدَّث عنه النقيب، والذي كان يَقْصِدُهُ نابليون في صِباه، لينكَبَّ على مراجعة دروسه.»

لعلَّ هذه المرةَ كانت هي المرةَ الأولى التي تُلاقي رغبةٌ من رَغَبات العقيد صدى طيِّباً لدى ابنتِهِ وتنالُ موافقتَها. لهذا كان العقيدُ سعيداً غاية السعادة بهذا التوافقِ الذي لم يكن يتوقَّعُهُ. ومع ذلك فقد أخَذَ يذكُرُ بعض العقبات التي تجعَلُهُ يصْرِف النظرَ عن مثل هذا المشروع، ليُذْكي الرغبةَ في نفس ابنتِهِ، فيضمَنَ موافقتَها بصورة مؤكَّدة، لا تراجُعَ بعدها. تحدَّثَ إليها عن وعورةِ تلك البلاد، وعن المصاعب التي تكتنفُ السَفرَ عَبْرَها والتي لا يُمْكن لامرأةٍ أن تحتملها. ولكنها أصرَّتْ بصلابةٍ على السفر، وقالت إنها لا تخشى شيئاً وإنها، إلى جانب ذلك، تحبُّ أن تسافر على الخيل، وتتمنى أن تنامَ في خيمة. وهدَّدتْه، آخرَ الأمرِ، بأنّها

ستسافرُ إلى آسيا الصُغرى إن لم يُوافِقْ على السَّفرِ إلى كورسيكا.. لقد وَجدَتْ رَدّاً على كلِّ حُجّةٍ من حُجَجِهِ المفتعَلَة، التي أوهمها بها أنّهُ لا يستطيعُ القيامَ بهذه الرِّحلة. قالتْ له إنهُ لم يَسْبِقْ لأيِّ فتاةٍ انكليزيّةٍ أن زارَتْ كورسيكا، فلا بُدَّ لها، هي، أن تحقِّق هذه الأمنية. فما أعظَمَ السعادة التي ستجدُها عندما تَعُودُ إلى مَيْدان «سانت جيمس»، فترى صُوَيْحباتها مجموعةَ رسومِها فيَقُلْنَ لها: «ولكنْ.. لمَ تَمُرِّين، أيتها العزيزة، عن هذا الرسم؟»، فتجيبهنَّ قائلةً:

– «أوه! إنه ليس بالشيء الهام!.. إنه مخطط أوّليّ للص كورسيكي شهير!»

وعندئذ يتساءَلن:

– «ماذا تقولين؟!.. أكنت حقاً في كورسيكا؟!»

ولم تَكُنِ السُّفُنُ التجاريةُ، حتى ذلك الحين، تَعْمَلُ بين فرنسا وكورسيكا؛ لهذا أخذَ العقيدُ يسألُ عن مركبٍ شراعيٍّ مُتجهٍ إلى تلك الجزيرة. وفي نفس اليوم كتبَ إلى باريس ليلغي حَجْزَ الشَّقّةِ التي كانت مُعدَّة لاستقباله في العاصمة الفرنسية؛ كما اتّفقَ مع رُبّان سفينةٍ كورسيكية صغيرةٍ كانت مسافرةً إلى أجاكسيو.

كانت السفينةُ تشتملُ على حُجرتين اثنتين. وقد حمل العقيدُ معه كميةً وافيةً من المؤن. وأقسمَ له الرُّبانُ أنّ لديهِ بحاراً مُسِنّاً لا مثيلَ له في إعداد السمك « الطاجن »؟ كما أكّدَ أن الآنسةَ ستكونُ في غايةِ الراحة، وأنها ستنعَمُ بالهواءِ المُنعِش والبحر الجميل.

من ناحيةٍ أخرى، طلب العقيدُ من الرُّبّان – حسَبَ رغبة ابنتِهِ – ألاّ يَقْبَلَ أيَّ مسافرٍ آخَرَ على ظهر السفينة، وأن يسيرَ بها في محاذاة ساحل الجزيرة، بحيث يتسنّى لهما أن يستمتعا بمَرْأى الجبال.

٢ . الكورسيكي الغامض

في اليوم المحدَّدِ للسفر كان كلُّ شيءٍ قد أُعِدّ. فمنذُ الصباحِ الباكرِ أُقفِلَتِ الحقائبُ والصناديقُ، ووُضِعَتْ في أماكنها على السفينة، التي كانت ستُبْحر معَ أنسام المساء.

وفي انتظارِ الرَّحيلِ ذهبَ العقيدُ وابنتُهُ ليَتَنَزَّها من ناحية شارع « كامّبيير ». وأثناء تجوالهما، لحق بهما الرُّبان، ورجا من العقيد أن يسمحَ له بأخذِ شخص يَمُتُّ إليه بصلة القرابة.. فهو ابنُ ابن عم عرّاب ابنهِ البِكْر! وهو عائدٌ إلى كورسيكا، مَسْقَطِ رأسه، لتصريف بعضِ الشؤون

الهامة.. ولم يَجِدْ سفينةً تَنْقُلُهُ إليها. وأضاف الرُّبان « مايتي »قائلاً:

« إنه شابٌّ في غاية اللُّطف.. رجلٌ عسكري.. نعمْ، ضابطٌ في فرقة القَنّاصة. ولو أنَّ الآخرَ (يقصد نابليون) لا يزال امبراطوراً لأصبحَ، هو برتبة عقيدٍ، من غير ريب! »

فأجابه العقيدُ قائلاً:

« بما أنهُ رجلٌ عسكريّ... »

وكان يريدُ أن يضيف: « فأنا أوافقُ على أن يَصْحَبَنا »، ولكن ليديا صاحت قائلةً، باللغة الانكليزية:

« إنه ضابطٌ في سلاح المُشاة.. ولهذا فقد يكونُ عديمَ التربية.. بل قد يكون ممن يصابُونَ بدُوار البحر، فيُفسد علينا مُتْعَةَ الرّحلة! » ذلك أن والدَها كان يخدِمُ في سلاح الفرسان، ولهذا فقد كانتْ تحتقرُ جميعَ الأسلحة الأخرى.

كان الرُّبانُ لا يَفْهَمُ كلمةً واحدةً من اللغة الإنكليزية، غير أنه أدركَ مؤدّى ما تقوله الفتاة. من معنى الاشمئزازِ الذي ظهرَ على ثغرها الجميل؛ فراح يمتدح قريبَهُ قائلاً:

« إنهُ من أسرة عريقةٍ كلُّ رجالها كابورو (مفردها كاپورال أي عريف). وهو مهذبٌ إلى أقصى درجات التهذيب.. ثم إنّه لن يُزعجَ العقيدَ المحترم بأيِّ شيء، لأنهُ

سيتولى، هوَ بنفسه - أي الرُّبان - ايواءَهُ في ركنٍ من السفينة بحيث لن يشعُرَا بوجودِهِ طوالَ الرحلة.»

ولقد عجبَ العقيدُ وابنتُهُ أيّما عَجَبٍ من أن تكون في كورسيكا عائلاتٌ يَرِثُ أفرادُها رتبةَ العريفِ كابراً عن كابر. ولكنْ بما أنهما كانا يعتقدان أن هذا الشخصَ عريفٌ في سلاح المشاة فقد استنتجا أنه لا بُدَّ أن يكون رجلاً مسكيناً، يأخذه الرُّبان على ظهر سفينته بداعي الشفقة. ولو كان هذا الرجلُ ضابطاً لكانا مُضْطَرَّينِ إلى الجلوسِ معَهُ والتحدُّث إليه؟ ولكنْ بما أنه عريفٌ فلن يَحْفَلا به ولن ينزعجا بسببِهِ. فالعريفُ لا يضايقُ إلا متى كان مع فرقتِهِ، فهو وزملاؤه يسوقونكَ إلى حيثُ لا تريدُ وحرابُهم في رؤوس البنادق.

قالت الآنسة ليديا:

«هل يُصاب قريبُك هذا بدُوار البحر؟»

- «على الإطلاق. يا آنستي!.. إن قلْبَهُ في صلابةِ الصَّخْر، سواءٌ أكان في البحرِ أم في البر!»

- «إذن تستطيعُ أن تأتي به!»

وردَّد العقيدُ وراءها قائلاً:

- «أجل.. في وُسعِك أن تأخذه!»

ثم مضيا يُواصلان النُّزْهة. وحوالى الساعةِ الخامسةِ جاءهما الرُّبان لينبئَهما بقرب السفر.

وفي المرفأ وجدا، بجانب قارب الرُّبان، شاباً طويلَ القامة، اسمرَ اللون، له عينانِ سوداوانِ يُشِعّ منهما الذكاء والحياة وكان يرتدي سترةً زرقاء تصلُ ازرارُها إلى ذقنه.

عندما رأى الشابُّ العقيدَ مقبلاً رفع قُبَّعته محيِّياً وراح يشكُرُه، بعباراتٍ لطيفةٍ ودون أيِّ ارتباك، على اليد التي أسداها إليه. فأجابه العقيدُ، وهو يحني رأسهُ بصورة وُدِّية:

«إني سعيدٌ بأنْ أؤدِّيَ إليك خدمةً يا بني!»

ثم نَزَلَ إلى القارب. فقال الشابُّ للرُّبان بصوتٍ منخفضٍ وباللغة الايطالية:

«صاحبُكَ الانكليزيُّ قليلُ الاهتمام!»

فوضع الرُّبان سَبَّابَتَهُ تحت عينه اليسرى وأرخى طَرَفَيْ فمه.. وكان يعني بذلك أنَّ العقيد يفهَمُ الايطاليةَ وأنهُ رجلٌ غريبُ الأطوار. فابتسَمَ الشابُّ وجعلَ ينظرُ إلى رفيقةِ السفر الحسناءِ بكثيرٍ من الاهتمام، ولكنْ دون أيِّ معنى من معاني الوقاحة.

وقال العقيدُ لابنتِهِ باللغة الانكليزية:

«إنَّ هؤلاء الجنود الفرنسيين أجساماً ممتازةً، ولهذا

سُرعانَ ما يُصبحون ضبّاطاً!»

ثم التفتَ إلى الشاب وقال له بالفرنسية:

«قُلْ لي، أيُّها الفتى الشجاع، في أيِّ فرقةٍ خدَمْت؟»

فوكَزَ الشابُ قريبَهُ الربّان بمِرْفقِهِ، وأخفى ابتسامة ساخرة، وأجاب بأنه كان في حَرَس القَنّاصةِ المُشاة، وأنه يغادرُ الآنَ الفرقةَ السابعةَ الخفيفة فسأله العقيد:

«هل اشتركْتَ في معركة واترلو؟.. إنك لا تزالُ حديثَ السن!»

– «عَفْوكَ، يا سيدي العقيد! هذهِ هي المعركةُ الوحيدةُ التي اشتركتُ فيها!»

– «إنها تُساوي معركتَيْن اثنتينْ.»

فعضَّ الشابُ على شفته. وقالت الآنسة ليديا:

«سَلْهُ يا أبتي، عما إذا كان الكورسيكيون يُحبونَ نابليون كثيراً؟»

ولكن قبل أن يبدأ العقيدُ بترجمة هذه العبارةِ إلى الفرنسية، أجابها الشاب بإنكليزيةٍ سليمة، ولكنْ تَشُوبها لُكْنَةٌ اجنبية:

«تَعْلَمين، يا آنستي. أنْ لا نبيَّ في وطنه.. فلعلّنا، نحن

مواطني نابليون، نحبُّهُ أقلّ مما يُحبُّهُ الفرنسيون. أما أنا فإنني أحبُّهُ وأُعْجَبُ به كلَّ الاعجاب، بالرغم من العداءِ القديمِ الذي كان مستحكماً بين عائلتَيْنا!»

فصاح الكولونيل:

«إذن، فأنت تُحسِنُ الانكليزية؟»

«إنني أتحدَّثُ بها بشكلٍ رديءٍ جداً، كما ترى!»

وبالرَّغم من أن الآنسة ليديا قد صُدِمَتْ شيئاً ما من لهجة ذلك العريف الذي كان يتحدَّثُ بكلّ حرِّية، فإنها لم تتمالَكْ نفسَها من الضّحك، وهي تفكرُ في رَفْع الكُلْفةِ على هذا النحو بين ضابط صفٍ بسيطٍ وبين امبراطور عظيم. وكأنَّ هذا قد نبَّهها إلى أنها ستشاهدُ كثيراً من الغرائبِ في كورسيكا. فصمَّمتْ على أن تُشيرَ إلى هذه الصِّفةِ في مذكراتها.

قال العقيد:

«لعلّك كنتَ أسيراً في انكلترا؟»

– «كلا، يا سيدي العقيد!.. لقد تعلَّمْتُ الانكليزية في فرنسا، وأنا حديثُ السِّن، من أسيرٍ من أبناء وطنكم!»

ثم وجَّهَ الخطابَ إلى الآنسة ليديا قائلاً:

«لقد أخبرني مايتي بأنكما عائدان من إيطاليا.. لا شكّ في أن الآنسة تتحدَّث باللَّهجة التوسكانية الصافية.. أخشى أن تجِدِي شيئاً من الصعوبة في فهم لغتنا العامية!»

فردَّ عليه العقيد قائلاً:

«إن ابنتي تفهمُ جميعَ اللَّهجاتِ الايطالية؛ فهي ذاتُ موهبةٍ في ميدان اللُّغات.. وليست مثلي!»

قال الشابّ:

«أفي استطاعة الآنسة أن تفهَمَ هذه الأبياتَ من إحدى الأغاني الكورسيكية، وقد جاءت على لسان راعٍ يطارحُ راعيةً يحبُّها:

«سانتراسي – ندرو بارادیزو سانتو، سانتو.... (لو دَخَلْتُ جَنَّاتِ النعيم طاهراً مُطَهَّراً كأني قدِّيس، ولم أَجِدْكِ فيها، لغادرتُها دون انتظار)!»

وفهمتِ الآنسةُ ليديا، ولكنَّها وجدت أنّ البيتين ينطويانِ على كثير من الجرأة.. وكذلك النظرة التي رافقَتْها. فأجابَتْهُ وقد تخضبَتْ وجنتاها:

«كابيسكو! (إنني أفهم)»

وسأله العقيد:

«وهل حَصَلْتَ على إجازة ستة أشهرٍ لتَقْضِيهَا في بلادك؟»

– «كلا، يا سيدي العقيد! بل وافقوا على وَضْعي في الاحتياط بنصف مُرَتّب.. ولعلّهم فعلوا ذلك لأنني اشتَرَكْتُ في معركة واترلو، وأنني مواطنٌ لنابليون!.. إنني أعودُ إلى موطني خالياً من المال والآمال كما تقول إحدى الأغاني!»

وتنهَّدَ الشابُّ وهو ينظرُ إلى السماء. فدس العقيدُ يَدَهُ في جيبه وأخرَجَ قطعة ذهبيةً راحَ يقلِّبها بين إصابعه، ويفتِّش عن عبارة مهذَّبة يقدِّم بها هذه القطعة إلى عَدُوِّهِ البائس، دون أن يَجْرَحَ شعوره. قال أخيراً:

«وأنا أيضاً في الاحتياط بنصف مُرَتّب.. ولكنَّك بنصف مُرَتَّبِكَ لا تستطيعُ شراءَ ما تحتاجُ إليه من التَّبغ.. خذ، أيها الأمباشي!»

وحاول العقيدُ أن يُدخل القطعةَ الذهبيةَ في يد الشابّ المُطْبَقة. التي كان يستندُ بها إلى حافةِ الزورق. وسُرعانَ ما احمرَّ وجهُ الشابِّ الكورسيكي. الذي انتصبَ بقامتِهِ الفارعة. وعضَّ على شفتِهِ. وبدا عليه أنه سيَرُدُّ على العقيد بحدَّةٍ وعنف. ولكنْ ما لبثَ أن تغيَّرَ تعبيرُهُ وانفجَرَ ضاحكاً. ووقفَ العقيدُ مشدوهاً، ويدُهُ ممدودةٌ بالقطعة

النقدية. قال الشابُ مستعيداً مظهرَهُ الجادّ:

«إسمَحْ لي، يا سيادةَ العقيد، أنْ أسْدِيَ إليك نصيحتَيْن اثنتيْن، أولاهما أن لا تقدِّم مالاً إلى كورسيكيّ، فقد تَقَعُ على أناسٍ من مواطنيَّ تصلُ بهم الوقاحةُ إلى أن يَرْمُوا به رأسَك. أما الثانية فهي أن لا تخلعَ على الناس ألقاباً لم يطالبوكَ بها.. فلقد دعوتني بالأمباشي وأنا ملازمٌ أول.. ليس الفَرْقُ كبيراً بالطبع ولكنْ...»

وقاطعَهُ العقيد قائلاً:

«أيُّها الملازم.. أيها الملازم.. إن الرُّبّان هو الذي أخبرني بأنك «كاپورال»، وكذلك والدك وجميع رجال أسرتك!»

لدى هذه الكلماتِ استرخى الشابُ مسنداً ظهرَهُ إلى الحاجز، وراح يُقَهْقِهُ بكثيرٍ من المرَح.. حتى أن الرُّبّانَ وملاّحَيْه الاثنَيْنِ انفجروا ضاحكين بصوت واحد.

وأخيراً قال الشابّ:

«عَفْوَكَ، يا سيّدي العقيد! إن سوء الفهم الذي وقع كان من الخفاء بحيْثُ لم أدرِكْهُ إلا في هذه اللحظة!.. أجل إن أسرَتَنا تفخَرُ بأنَّ ثُلّةً من أجدادنا كانوا «كاپورو»؛ ولكن الكاپورو الكورسيكيين لم يحملوا قطُّ أشرطةً على

ملابسهم. ففي عام ١١٠٠، عامِ الخلاص، ثارت بعضُ المقاطعاتِ على حكم الطغيان الذي كان يمارسُهُ السادةُ الاقطاعيّون، فاختارتْ لنفسِها قادةً دعَتْهم بالكاپورو؛ وفي جزيرتنا نفتخرُ بالانتساب إلى هؤلاء الرجال، الذين كانوا يدافعونَ عن حقوق الشعب!»

صاح العقيد:

«عَفْوَك يا سيدي، ألفَ عفو!.. بما أنكَ فهِمْتَ سببَ خطأي، فرجائي أن تَغفرَ لي هذهِ الهَفْوة!»

ومدَّ إليه يَدَهُ ليصافحه. قال الشابُّ، وهو يَشُدُّ على يد الانكليزيِّ بصداقة، مواصلاً ضحكَهُ مع ذلك:

«إن هذا هو الجزاءُ العادلُ لصَلَفي، يا سيِّدي العقيد. ثق أنني محَوْتُ من نفسي كلَّ أثَرٍ لما حدَث. ولكنْ بما أن صديقي مايتي لم يُحسِنْ تقديمي إليك، فاسمَحْ لي بأن أقدِّمُ نفسي من جديد.. فأنا أورسو ديلاّريبيا، ملازمٌ أول احتياطي!.. وإذا لم أكنْ مخطئاً فإن هذين الكلبَيْن الجميلَيْن يدلاّن على أنك قادمٌ إلى كورسيكا بقَصْد الصيد.. ولهذا فإنه ليُسْعِدُني جداً أن أكون دليلَكَ في أدغالنا وجبالنا!»

وأضاف وهو يتنهَّد:

« ... اللّهمّ إذا كنتُ لا أزالُ أذكرُها! »

في تلك اللحظةِ وصلَ الزورقُ إلى السفينة ولامَسَها. ومدَّ الملازمُ يدَهُ إلى الآنسة ليديا ليساعدَها على الصعود إلى السفينة؛ ثم بذلَ مساعدتَهُ للعقيد.

وعندما أصبحَ العقيدُ على ظهر السفينة كان لا يزال خَجِلاً من الحماقة التي ارتكبَها في حقِّ رجلٍ محترم، يَرْجِعُ تاريخُهُ إلى سنة ١١٠٠. وكان يفتِّشُ عن وسيلةٍ يُنْسيهِ بها تلك الغلطة؛ ولهذا فقد دعاه، دون استشارة ابنتِهِ، إلى تناولِ الشايِ معهما؛ ثم كرَّر اعتذارَهُ وصافحه.

لم تكنِ الآنسة ليديا راضيةً تمامَ الرضا.. فقد كانت مقطِّبةً شيئاً ما؛ إلا أنها لم تنزعجْ، لأنها عَرفَتْ ما هو الكاپورال في عُرْف الكورسيكيين.. ثم إنها لم تجدْ في ضَيفها ما ينفِّر.. لا، بل إنها لمسَتْ فيه جانباً ارستقراطياً! غير أن مبالغتَهُ في الصراحة والمَرحِ تجعله أبعدَ ما يكون عن أبطالِ القِصص.

قال أُورسو:

« ما أجمل هذا البحر!.. إنني لم أرَ البحرَ المتوسط منذ عشرةِ أعوام!... ألا تَرَيْنَهُ أجمل من المحيط، يا آنسة ليديا؟ »

- « إنني أجدُ أن زُرْقَتَهُ زائدةٌ عن الحد.. كما أن أمواجَهُ قليلةُ الارتفاع! »

- « يبدو أنكِ تحبين الطبيعةَ الوحشية!.. وعلى هذا أعتقدُ أن كورسيكا ستحوزُ على إعجابك! »

قال العقيد:

« إن ابنتي تحبُّ كلَّ شيء غير مألوف.. من أجل ذلك لم تُعْجِبْها إيطاليا على الإطلاق! »

وقال أورسو:

« أنا لا أعرفُ من ايطاليا سوى پيزا، التي قَضَيْتُ فترةً من الزمن في مدرستها الثانوية. ولكنني لا أذكرُ « كامبو سانتو » والقُبَّةَ والبرجَ المائلَ إلا وتمتلىء نفسي بالاعجاب.. وخاصة كامپو سانتو! هل تذكرين لوحةَ « الموت » لأوركانيا[1]؟.. أعتقدُ أنني أستطيعُ رسْمَها من الذاكرة، لأنها نُقِشَتْ في مخيلتي! »

وخشيت الآنسة ليديا ان يمضيَ في هذا الوصفِ المتحمِّس، فقالتْ باقتضاب وهي تتثاءب:

---

(١) هو أندريا دي شيوني أركانيولا. الذي يُطلق عليه اسم أوركانيا.. وهو رسام ونحات فلورنسي من القرن الرابع عشر. (المترجم)

«أجل، إنها جدُّ جميلة!»

ثم التفتَتْ إلى والدها وقالت:

«إسْمَحْ لي، يا أبتي، أن أهبط إلى حجرتي، فاني أشعرُ بصداعٍ خفيف!»

ولبث الرَّجُلانِ وَحْدَهُما يتحدَّثانِ عن الصيد والحرب. وقد عَرَفَ كلٌّ منهما أنَّهُ كانَ يَقفُ في مواجهة الآخر إبَّان معركةِ واترلو.. ولا بُدَّ أنهما تبادلا عدداً كبيراً من الرصاص. ولعلَّ هذا قد زاد التفاهمَ بينهما، فراحا يَنْقُدان نابليون مرة، وينقدانِ «ولنغتون» و «بلوخر» مرةً أخرى. ثم راحا يصيدان معاً أسراب الظباء والخنازير والكِباش البرية. وعندما أوْغَلَ الليل وانتهتْ آخرُ زجاجةٍ من نبيذ بوردو، نهض العقيد وصافح الملازمَ أورسو من جديد مُتَمنّياً له ليلةً هنيئة، وراجياً أن تتوثّقَ بينهما تلك الصداقةُ التي بدأتْ بطريقةٍ سخيفة. وأوى كل منهما إلى مَرْقدِهِ.

٣. الانكليزية الفضولية

كانت تلك الليةُ رائعةً ساحرة: فقد كانت أشعَّةُ القمر تَضْطَرِبُ مُلتمعةً على صفحة الماء، بينما السفينة تجري في يُسْرٍ وفي هدوء على هوى أنسامٍ هَيِّنةٍ حنون. ولم تَجِدْ ليديا

أيَّ رغبةٍ أو استعداد للنوم. لقد حال وجودُ شخص غريب بينها وبين الاستمتاع بتلكِ الأحاسيس التي تفيض بها النفوسُ الشاعرة، وهي تسري بين البحر الساجي والبدر المضيء. ولما قَدَّرَتْ أن الملازمَ الشابَّ لا بُدَّ أن يكون قد غرق في نوم عميق، لأنه ليس مِمَّن يُدركون هذه المعاني الروحية، نهضت من فراشها، ووضعت على كتِفَيْها مِعْطفاً من الفرو؛ ثم أيقظت وصيفَتَها، وصعِدَتا معاً إلى ظهر السفينة.

لم يكن هناك سوى بحارٍ يقفُ عند سُكّان السفينة، وهو يغني، باللهجة الكورسيكية، وبِلَحْنٍ مُوحِشٍ رتيب، أغنيةً حزينةً، أشبهَ ما تكون بالمراثي. ومع ذلك فقد كانت لهذا اللّحنِ رَوْعَتُهُ في ضمير الليل الهادىء الصامت.

ولكنَّ ليديا لم تَفْهَمْ بالدِّقّةِ ما كان يتغنّى به النُّوتيّ. كان يَرِدُ في الأغنية كثيرٌ من المعاني العادية المألوفة، ثم ينبثقُ بين أبياتها بيتٌ فيه طرافةٌ وقُوَّة، فيثيرُ في نفسها الاهتمامَ والفُضول؛ ولكنْ لا تلبثُ أن تَطْرُقَ سَمْعَها، وهي في ذِرْوَةِ المتابعة، كلماتٌ مُغْرِقَةٌ في العامية لا تُدْرِكُ معانيها.

غيرَ أنها فهمتْ من سِيَاقِ الأغنية أنها تدُورُ حول حادثةِ قتل. فمن لَعَناتٍ تُصَبُّ على رأسِ القَتَلة، إلى تهديدٍ بالأخذ بالثأر، إلى مديح وإطراء للقتيل. وكلُّ ذلك كان

مختلطاً دون تسلسُلٍ ولا ترتيب.

وفجأةً توقَّفَ الملاحُ عن الغناء. فسألتْهُ الآنسة ليديا:

« لِمَ لا تمضي في غنائك. أيها الصديق؟ »

فأشار برأسه إلى وجهٍ ظَهَرَ من أحد الأبواب. كان ذلكَ وَجْهَ أورسو. الذي خرج ليستمتع بضوء القمر. وعادت ليديا تقولُ للنُّوتيّ:

« أكمِلْ مَرْثاتَكَ. فقد امتَعْتَني غايةَ الإمتاع! »

فانحنى الرَّجُلُ إلى ناحيتها وقال لها بصوتٍ خفيض:

« إنني لا أُوَجِّه « الريمبيكّو » إلى أحد! »

- ماذا تقول؟.. الر... »

وراح الملاحُ يَصْفرُ دون أن يَرُدَّ عليها. وتَقَدَّمَ أورسو نَحْوَها وقال:

« ها أنذا أفاجئك وأنتِ تُمَتِّعين النَّظَرَ بمرأى بحرِنا!.. لا بُدَّ لكِ من الاعتراف بأنه لا يُمكن للمرء أن يرى مثلَ هذا القمرِ في أيِّ مكانٍ آخر! »

- « لم أكن أنظرُ إليه: إذْ كنتُ مشغولةً عنه بدراسة اللغة الكورسيكية. فلقد كان هذا البحارُ يُغنّي مَرْثاةً زاخرةً بالتفجُّع. ثم توقَّفَ في اللحظة الحاسمة! »

وانحنى البحار، كأنه يريدُ أن ينظُرَ في البوصلة عن كثَب. ثم جذَبَ مِعطف الآنسةِنيفل بعنف. ومن هذا كان يبدو واضحاً أنه لا يستطيعُ أن يُغَنِّيَ تلك الأغنيةَ أمامَ الملازم أورسو. قال هذا:

« ماذا كنت تغنّي. يا پاولو فرانكي؟.. أكانت تلك « بالاّتا » أم « ڤوكّيرو »؟ إن الآنسة تفهمُ غناءَك وتريد أن تستمعَ إلى الخاتمة! »

فأجاب البحارُ قائلاً:

« لقد نسيتُها. يا أورس - انتون! »

ثم جَعَلَ يرتِّل. بصوتٍ جدٍّ مرتفع. نشيداً دينياً موجّهاً إلى السيدة العذراء. وراحت ليديا تستمعُ إلى النشيد في شرود. ولم تَعُدْ إلى الإلحاح في طلبها. على أمل أن تكشفَ سِرَّ ذلك فيما بعد. ولكنَّ وصيفَتَها. وهي امرأةٌ من فلورنسا لا تفهَمُ اللهجة الكورسيكية أكثرَ من سيِّدتها. أرادت. هي الأخرى. أن تُرْضِيَ فُضولَها: فسألت أورسو. قبل أن تجد سيدتُها فرصةً لإسكاتها بوكْزةٍ من مِرْفقها:

« سيدي النقيب! ما معنى « يُوجِّه الرمبيكّو » في اللغة الكورسيكية؟ »

- « الرمبيكو؟! إن هذه أعظمُ شتيمةٍ تُوجَّه إلى

الكورسيكي! إنها تعني تعييرَهُ لأنهُ لم يأخُذْ بثأرِهِ! ولكنْ.. من تحدَّثَ إليكما عن الرمبيكو؟»

«فسارعت ليديا إلى الإجابة:

«سمعتُها أمس في مرسيليا.. سمعتُها من صاحب السفينة!»

فسأل أورسو باهتمام:

«عمَّن كان يتحدَّث؟»

- «أوه.. لقد كان يروي لنا قصةً قديمة!.. قصةً ترجعُ إلى عهد الـ ... نعم.. إنها تتعلَّقُ بڤانّينا دورنانو!»

- «أظن أن موت ڤانّينا يجعلُكِ تكرهينَ بطلَنا الشُّجاعَ سامپييرو.. أليس كذلك، يا آنستي؟»

- «إن له ما يبرِّر جريمَتَهُ من التقاليد الوحشية لذلك الزمان! ثم إن سامپييرو كان يخوضُ حربَ حياةٍ أو موت ضدَّ أهل «جِنَوَه».. فهل كان من الممكن أن يَثِقَ به مواطنوه لو لم يُعاقِبْ تلك المرأةَ التي كانت تحاولُ مفاوضةَ الجنوبيين؟!»

قال البحار:

«لقد ذهبت ڤانّينا دون إذن زوجِها!.. وقد أحسَنَ

سامپييرو صنعاً عندما قتَلها.»

أجابت ليديا:

«ولكنَّها لم تذهبْ إلى الجنويين إلا حُباً بزوجها!.. كانت تريد إنقاذَهُ، لذلك طلبت منهم أن يَصْفَحوا عنه!»

فصاح أورسو:

«إنَّ طلَبَ صَفْحِهِمْ عنه ينطوي على تحقير له.»

قالت ليديا:

«أيقتلها بيده؟!.. يا له من وحشي!»

- «أنتِ تعلمينَ أنها هي التي طلبَتْ أن تموت بيده!.. طلبت ذلك كخدمةٍ يؤدِّيها إليها!.. وهل ترى الآنسة أن عُطَيْل كان وحشاً؟»

- «ما أبعد الشُّقّة بينهما!.. إن عُطيْل كان مدفوعاً بالغَيْرة. أما سامپييرو فلم يكن ينطوي إلا على الصَّلَف!»

- «والغَيْرة.. أليست نوعاً من الصَّلف؟.. إنها صَلَفُ الحب! ولعلّكِ تتسامحين معهُ من أجل هذا بالذات!»

فحَدَجَتْهُ ليديا بنظرةٍ تَزْخَرُ بالأنفة؛ ثم حوّلت نظرَها إلى الملاح وسألَتْهُ متى تصلُ السفينةُ إلى المرفأ. قال لها:

«بعدَ غدٍ، إن ظلَّتِ الرياحُ مواتية!»

- « إني أتعجّلُ الوصولَ إلى أجاكسيو، لأنَّ هذهِ السفينةَ تزعجني! »

ولم تلبَثْ أن نهضَتْ، فأمسكَتْ بذراع وصيفَتِها، وهبطتْ إلى حُجرتها. وبعد قليل حذا أورسو حَذْوَها، وانسحب هوَ الآخر.

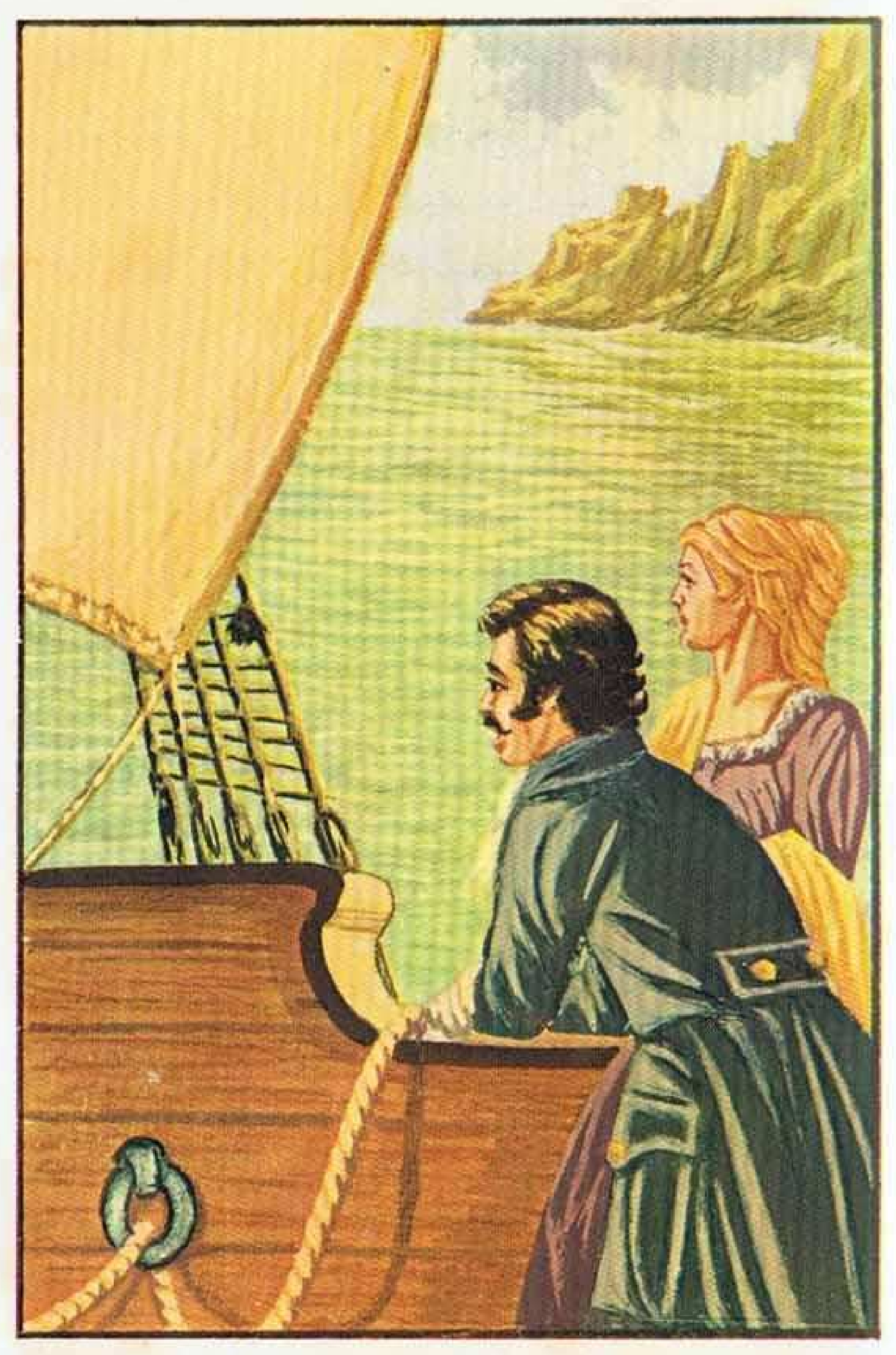
ولم يكدْ يغادرُ سطحَ السفينة حتى عادتِ الوصيفة، فأجرت تحقيقاً مستفيضاً مع الملاّح؛ ثم عادت إلى سيِّدتها بهذه المعلومات:

إن « البالاّتا » التي قطعَها مجيء أورسو قد أُلِّفَتْ في مناسبة موت العقيد ديلاريبيا، والد أورسو، الذي قُتِلَ منذ عامين. ولم يخامر الملاّح أيُّ شكٍّ في أن أورسو عائدٌ إلى كورسيكا للأخذ بالثأر. وقد أكّد أنه لن تَمُرَّ مدةٌ وجيزةٌ حتى يكونَ في قرية « بيترانرا » « لحم طازج »! وهذا التعبيرُ المحلّي يعني أن السيد أورسو ينوي البَطْشَ بشخصَيْن أو ثلاثة، وهم المتهمون بقتل والده وقد مَثُل هؤلاء الأشخاص أمام المحكمة، بهذه التُّهمة، ولكنّهم خرجوا منها أبرياء، صَفَحاتُهُم ناصعةٌ كالثلج؛ وذلك لأنهم كانوا يُسيطرون على القضاة والمحامين وحاكم المنطقة ورجال الدَّرَك. وأضاف البحار قوله:

« ليس في كورسيكا أيُّ عدالة! وأنا أركُنُ إلى بندقيةٍ جَيِّدةٍ أكثَرَ مما أركنُ إلى مستشارٍ في المحكمة الملكية العُليا! عندما يكون للمرء عَدُوّ، عليه أن يختارَ بين ثلاثة أشياء: البندقية أو الخَنْجرِ أو الهَرَب! »

هذه المعلوماتُ الهامة غيَّرَتْ، إلى أبعد حد، أسلوبَ الآنسة ليديا وموقفها من الملازم ديلاريبيا. فمنذ تلك اللحظة أصبح هذا الشابُّ شخصاً محترَماً في عين الانكليزية، التي تَعْشَقُ روايات البطولة. لقد تبدَّلَتْ نظرتُها إلى تلك الصفات التي يتميَّزُ بها أورسو، من عدم اكتراث، ومن صراحةٍ مُغْرِقَةٍ ومرحٍ دائم: وهي صفاتٌ نَفَّرَتْها مِنْهُ في بادىء الأمر؛ فأصبَحَتْ ترَى أنَّ هذه التصرُّفاتِ لَيْسَتْ سوى ستارٍ تختفي وراءَهُ رُوحٌ قويّة. لا تَدَعُ عاطفةً من عواطفها تتسرَّبُ إلى الخارج وتتكشّف للعيون. لقد بدا لها أورسو رجلاً شبيهاً « بفِيَسْك » [1]. يُمَوِّهُ خطَطَهُ الخطيرةَ الواسعة بمظاهرَ من الخفة والعَبَث. ومع أنَّ قتل بعض الأشقياء لا يُداني، من حيث البطولة، عَمَلَ الذي يُدافعُ عن وطنه ويقتلُ أعداءه، فإن الاخذ بالثأر مظهرٌ روائيٌّ

(١) فيسْك: أحد أبطال شيلر. (المترجم)



١ - ما أجمل هذا البحر يا آنسة ليديا

جميل. ثم إن النساء يُفضِّلْنَ البطلَ البعيدَ عن محيط السياسة.

بعد هذا الذي حدثَ بدأتِ الآنسةُ نبقل تلاحظُ أنَّ للملازم الشابِّ عينينِ واسعتَيْن جميلتين، وأسناناً نَضيدةً بيضاء، وقامةً مُتَّسِقةً فارعة، وأنَّهُ مثقَّفٌ ومُلِمٌّ بالآداب الاجتماعية.

وقد تحدَّثتْ إليه طويلاً غَداةَ تلك الليلة، وأُعْجبتْ بحديثِهِ غايةَ الإعجاب.. ألقَتْ عليه طائفةً كبيرةً من الأسئلة عن بلاده، فأجاب عنها خيرَ إجابة. فلقد ظلَّتْ كورسيكا - التي تَرَكَها حَدَثاً ليلتحقَ بالمدرسة الثانوية ثم بالكليَّة الحربية - ظلّت في ذهنِهِ متّسِمَةً بالمعاني الشِّعرية. وبحماسةٍ رائعة، راح يتفنّن في وصف جبالها وغاباتها، وتصوير ما دَرَجَ عليه سُكانُها من العادات الفَذَّة.

وكان من الطبيعيِّ أن يَرِدَ ذكرُ الثأرِ في أكثرِ من قِصّةٍ من القِصَصِ التي رواها لها، إذْ من المستحيل أن يَتطَرّقَ الحديثُ إلى الكورسيكيِّينَ دون أن تجدَ من يهاجمُ أو يبرِّرُ ذلك التقليد، الذي دَرَجوا عليه، وقدَّسُوهُ أعظَمَ تقديس.

ولقد دُهِشَتِ الآنسةُ نيقل، عندما سمِعَتْ أورسو يُعبِّر، بصفةٍ عامةٍ، عن سُخطِهِ على تلك الأحقادِ التي لا تنتهي، والتي يتوارَثُها مُواطنوهُ جيلاً بعد جيل. غير أنه حاولَ أن

يجدَ تبريراً للثأرِ عند الفلاحين، مُدَّعِياً أن ذلك لَدَيْهم أشبهُ ما يكونُ بالمبارزة.. قال:

«أجل.. هذا هُوَ الواقع؛ فالقتيلُ لا يَقَعُ إلا بَعْدَ تحدٍّ يتمُّ حسَبَ الأصول المتعارَفِ عليها. والكلمةُ المألوفة، التي يتبادلُها الخصمان قبل أن ينصبَ كلٌّ منهما الكمائنَ للآخر، هي: خُذْ حِذْرَكَ، وسآخُذُ حِذْري!»

ثم أضاف أورسو:

«إنَّ عَدَدَ جرائمِ القتلِ عندنا لا مثيلَ لَهُ في أيِّ مكانٍ آخر.. ولكن لا تقَعُ أيُّ حادثةٍ لسببٍ دنيء!..صحيحٌ أنَّ لدينا كثيراً من القَتَلة، ولكنْ ليس عندنا أيُّ سارقٍ على الاطلاق!»

كانت ليديا تنظُرُ إليه بكلِّ انتباه، كُلَّما لفظ كلمة «ثأر» أو «قَتْل». ولكِنْ لم تقرأْ في قَسَماتِ وَجْهِهِ أيَّ أثرٍ للانفعال. ولما كانت قد أيقنَتْ كُلَّ اليقينِ أنَّ لديهِ القوَّةَ الكافيةَ ليمنعَ العيونَ من النَّفاذِ إلى سَريرَتِهِ، اللَّهُمَّ إلا عَيْنَيْها، فقد ظلَّتْ تؤمن أن هامة [1] العقيد ديلاريبيا لن

---

(١) الهامة: نوع من البوم ينتجع المقابر والخرائب. وكان العرب يعتقدون أن هامة القتيل تظل تزعق فوق قبره إلى أن يؤخذ بثأره، فترتوي بدم العدو وتصمت. (المترجم).

تنتظر طَويلاً لتَسْكُنَ وتَطْمَئِنْ.

بعد ثلاثةِ أيامٍ وصلوا إلى جُزُر « سانجينير »؛ وامتدَّتْ أمامَ أعيُنهم تلك المشاهدُ الخلاَّبَةُ في خليج أجاكسيو، الذي يُشَبِّهونه، بحقٍّ، بخليج ناپولي. وفي اللحظة التي كانت فيها السفينةُ تدخلُ المرفأ، كان هناك دَغَلٌ يشتعل، فيغطِّي دخانُهُ جبلَ « پونتا دي جيراتو؟ ».. فَيُذَكِّرُ هذا المنظرُ ببركان الڤيزوف، مع شيءٍ من الاختلاف. فبدلاً من المعامل الجميلة التي تنتشرُ في كلِّ ناحيةٍ من منطقة ناپولي، ابتداء من « كاستيلا ماري » حتى رأسِ « ميسين »، ترى في خليج أجاكسيو أدغالاً مظلمةً تَنْبَثُّ حَوْلَها ووراءها الجبالُ الجرداء. فلا تقع العينُ على أيِّ ڤيلاّ أو أيِّ منزل. كلُّ ما هنالك أنَّكَ ترى، في المرتفعاتِ المحيطةِ بالمدينةِ كُتَلاً متباعدةً بيضاء تضيعُ بينَ النبات الأخضر. إنها ليست سوى قبورٍ وكنائسَ صغيرةٍ تَتِمُّ فيها المراسمُ الدينيةُ لتشييع الموتى إلى المقرِّ الأخير. إنّ كلَّ مظهرٍ من مظاهر هذه الطبيعةِ يَتَّسِمُ بجمالٍ وقورٍ حزين.

٤. شكوك الحاكم

خلالَ أوَّلِ يومَيْن قَضَتْهُما ليديا في كورسيكا زارتِ البيتَ الذي وُلِدَ فيه ناپليون وحصلتْ، بطُرُقٍ مشروعةٍ

وغيرِ مشروعة، على بعض الورق الذي كُسِيَتْ به جدرانُ هذا البيت. بعد ذلك تَوَلَّتها كآبةٌ شديدة؛ وهذا ما يَحْدُثُ عادةً للزائر في بلادٍ دَرَجَ أهلُها على عدم المعاشرة، فيُقْضَى عليه بالعُزْلةِ التامَّة. من أجل هذا نَدِمَتْ لاندفاعِها وإصرارِها على هذه الرحلة. ولكنَّ الرحيلَ فوراً والتراجعَ يُفقدانِها مكانتَهَا وشُهرتَها كرَحّالةٍ جريئة. ولذا صَمَّمَتْ على الاعتصام بالصبر، وتَزْجيةَ الوقت على أفضل وجهٍ مستطاع. وبعد أن اتخذَتْ هذا القرارَ الحكيم، هيَّأَتْ أقلامَها وألوانها، وبدأتْ برَسْمِ الخطوطِ الرئيسية لبعض مناظرِ الخليج. ثم رسمَتْ صورةَ فلاحٍ أسمرَ، كان يبيع البطيخَ، كنموذج لزارع البقول. ولكنَّ هذا الرَّجلَ كانت له لحيةٌ بيضاءُ كبيرةٌ ووجهٌ ينضَحُ بوحشيةٍ لا نظيرَ لها.

ولم يُجْدِ كلُّ ذلك في تسْلِيَتها. فقرَّرَتْ أن تلعبَ برأس حفيد « الكابورو »، وما كان هذا بالأمرِ العسير. ذلك أن أورسو لم يكن يستعجلُ العودةَ إلى قريته، بل إنه كان يبدو سعيداً في أجاكسيو، رغمَ أنه لم يَلْقَ أحداً فيها. وعلى كلِّ حال فقد صمَّمَتْ ليديا، بينها وبين نفسِها، على أن تقومَ بعملٍ إنساني نبيلٍ هو ترويض هذا الدُّبِّ الجبليّ، وحملُهُ على التخلّي عن خططِهِ الرّهيبة، التي عادَ من أجلها إلى بلاده. فمنذُ اللحظةِ التي بدأتْ فيها بدراسته، خطر

لها أنه من المؤسف حقاً أن يُتْرَكَ هذا الشابُ جارياً إلى حَتْفِهِ، وأنها تحقق عملاً بطولياً إن هي استطاعت أن تعيد كورسيكيّاً إلى الصواب وتدفَعَهُ إلى سلوك السبيل القويم.

كانت أيامُ هؤلاء المسافرينَ تسيرُ على النمط التالي: في الصباح يذهبُ العقيدُ و « أورسو » إلى الصيد. بينما تعكف ليديا على الرسم أو الكتابة إلى صديقاتها. فمن دواعي الفخر، أمام هؤلاء الصديقات، أن تحملَ رسائلُها إليهنَّ اسم أجاكسيو!.. وفي نحوِ الساعة السادسة يعود الصيادانِ محمَّلَيْن بالطرائد. بعد هذا، يتناولُ الجميعُ عشاءهم. ثم يجلسون، فتغنّي ليديا ويُهَوِّم والدُها فترةً من الوقت.. وبعد أن يأويَ العقيد إلى سريره، يظلُّ الشابانِ يتسامرانِ إلى ساعة متأخرة من الليل.

ولأمرٍ يتعلّق بجوازِ السَّفَرِ قامَ العقيدُ بزيارة حاكم المدينة. فتلَقّاهُ هذا بالترحابِ. والحقيقةُ أنه سُرَّ غايةَ السُّرورِ عندما عَرَفَ أنه يزورُ المدينةَ انكليزيٌّ ثريٌّ من أرفعِ الطَّبَقاتِ الاجتماعية له ابنةٌ شابةٌ جميلة! ذلك أن الحاكمَ وزملاءَهُ كانوا في غاية الضجر. من أجل هذا عَرَضَ عليه خَدَماتِهِ بكلِّ إلحاح؛ ولم يكتَفِ بذلك، بل إنهُ ذهبَ لزيارته بعد بضعةِ أيام.

كان العقيدُ مُسْتَرْخياً على الأريكة، عقبَ الانتهاء من

العشاء. أما ابنتُهُ فقد جَلَستْ تَعْزِفُ، على بيانو عتيقٍ مُهَلْهَلٍ، وتغني، بينما كان أورسو يُقَلِّبُ لها أوراقَ كرّاسة الموسيقى، وهو ينظرُ إلى كَتِفَيْها البيضاوَيْن وشعرِها الأشقر الجميل. وأُعْلِنَ نبأُ وصولِ الحاكم، فصمتَ البيانو ونهضَ العقيدُ للقاء ضَيْفِه.

بعدَ أن قدَّمَ إليهِ العقيدُ ابنتَهُ قال:

« إنني لا أعرِّفُكَ بالسيِّد ديلاريبيا، فأنت تعرفُهُ دون ريب! »

فسأله الحاكمُ بشيء من الضِّيق:

« هل السيِّد هُو ابنُ العقيد ديلاريبيا؟ »

فأجابه أورسو:

« نعم. يا سيدي! »

– « لقد كان لي الشرفُ بمعرفةِ والدك! »

وما لبثوا أن استنفدوا العبارات المألوفةَ ولم يَبْقَ هناك موضوعٌ للحديث. وراحَ العقيدُ يتثاءَبُ المرّةَ بعد المرة. أما أورسو فبوصفه شاباً لم يَشَأْ أن يبدأَ بالكلام مع نجمٍ من نجومِ السلطة؛ فلم يَعُدْ في الميدان إذن سوى ليديا، التي واصلتِ الحديثَ بمفردِها.

ولم يدَعْها الحاكمُ تسأم.. وكان من الطبيعيِّ أن يجدَ متعةً خاصةً في التحدُّث عن باريس والعالم مع فتاةٍ تعرفُ وجوهَ المجتمع الأوربي. وبين الفَيْنَةِ والفَيْنَةِ كان ينظرُ، أثناءَ كلامِهِ، إلى أورسو ويتفحّصُهُ بكلِّ اهتمام. ثم سأل ليديا إن كانَتْ قد تعرَّفَتْ إلى السيد ديلاريبيا في أوروبا. فأجابَتْهُ، بشيءٍ من الحَرَج، بأنّها عَرَفَتْهُ في السفينةِ التي حمَلَتْهُمْ إلى كورسيكا.

قال لها الحاكمُ بصوت منخفضٍ:

«إنه شابٌّ في غاية الكياسة!»

ثم أضاف بما يُشبهُ الهَمْس:

«ألم يُحَدِّثْكِ عن سبب عَوْدته إلى كورسيكا؟»

فاستعادَتْ ليديا مَظْهَرَها المتعالي وأجابَتْهُ قائلةً:

«لم أُلْقِ عليه مثلَ هذا السؤال.. في وُسْعِكَ أن تسألَهُ بنفسك!»

فسكتَ الحاكم. ولكنّهُ سمعَ أورسو، بعدَ لحظةٍ، يوجّهُ إلى العقيد بعضَ كلماتٍ بالإنكليزية، فقال له:

«يبدو أن السيِّدَ سافرَ كثيراً؟!.. لا بُدَّ أنكَ نَسِيتَ كورسيكا و.. عاداتها؟!»

– «هذا صحيح! فلقد غادرتُها في حداثتي!»

– «أما زلتَ في الجيش؟»

– «أنا في القوات الاحتياطية!»

– «لا شكَّ أن وجودَكَ في الجيش الفرنسيِّ مدةً طويلةً أتاح لك أن تصبحَ فرنسياً بكلِّ معنى الكلمة!»

ولفظَ هذه الكلماتِ الأخيرةَ بتعاظُمٍ ظاهر. والحقيقة أن الكورسيكيين لا يجدونَ أيَّ فخرٍ في أن ينتسبوا إلى الأمة الكبرى. فَهُمْ يريدونَ أن يكونوا شعباً على حِدَة.. ولطالما أعربوا عن اتجاهِهِمْ هذا..

وشعر أورسو بشيء من الغيظ فقال:

«أتعتقدُ، يا سيِّدي، أن الكورسيكيَّ يحتاجُ إلى الخدمة في الجيش الفرنسيِّ ليصبحَ رجلاً شريفاً؟»

– «كلا، كلا! ليس هذا ما رمَيْتُ إليه! إنني أقصد فقط بعضَ العادات في هذه البلاد، ومنها عاداتٌ لا يُحبُّ حاكمٌ أن يراها!»

وقد ضغط على كلمة «عادات». وأضفى على وجههِ تعبيراً من الجدّ بقدرِ ما أسعفَهُ وجهُهُ! ولم يلبَثْ أن نهضَ وخرج. بعدَ أن أخذ وعداً من ليديا بأن تذهَبَ للتعرُّف إلى زوجته.

على أثرِ خروجهِ قالت ليديا لأورسو، وقد تضرَّج خدَّاها:

« إننا لم نعرفْ بعضَنا، يا سيد ديلاريبيا، إلا منذُ أيام، في أثناء الرحلة. ولكن في البلادِ غيرِ المتمدِّنة - وأرجو ألا تؤاخذَني على هذا التعبير - تَتوثَّقُ الصداقاتُ بأسرعَ مما تتمُّ في البلدان الأخرى. لهذا أرجو ألا تُدهَشَ إذا تحدَّثْتُ إليك، كصديقةٍ، في أمورٍ خاصةٍ بك لا يَحِقُّ لغريبٍ أن يَدُسَّ أنفَهُ فيها! »

« أوه، لا تسمعيني كلمة « غريب ».. إنني أفضل عليها الكلمة الأخرى: كلمة صديقة! »

- « إذن فاعْلَمْ، يا سيدي، أنني دون أن أحاول تَقَصِّي أسرارِك، عرفتُ بالصُّدْفة طائفةً منها! وقد أحزنني بعضُها إلى حدٍّ كبير. إنني أعرفُ، يا سيدي، المصيبةَ التي نَزَلَتْ بعائلتك! وقد حدَّثوني كثيراً عن الاتجاهاتِ الثأريةِ لمواطنيك، وعن أسلوبهم في الانتقام.. أليس إلى هذه الناحية كان يلمِّحُ الحاكم؟ »

قال أورسو وقد اكتسى وَجْهُهُ بشحوبٍ شديد:

« هل تستطيعُ الآنسة ليديا أن تتصوَّر...؟ »

فقاطعتْهُ ليديا قائلةً:

« كلا، يا سيد ديلاريبيا! إنني أعلمُ أنكَ رجلٌ مهذّب، كريمُ النفس!.. لقد قلتَ لي، أنتَ نفسُك، إنه لم يَبْقَ في بلادك من يُفكرٌ في مسألة الثأر سوى الأوساطِ الشعبية. وقد حلا لكَ أن تعتبرَ ذلك شكلاً من أشكال المبارزة! »

- « أتعتقدين أنه يُمكن لي أن أصبحَ قاتلاً في يوم من الأيامِ؟ »

- « بما أنني أتحدَّثُ إليك في هذا الأمر، فلا بُدَّ لك أن تدركَ أنني لا أشكُّ فيك! »

ثم خفضت عينَيْها واستطردَتْ تقول:

« وإذا تطرَّقْتُ معكَ إلى هذا الحديث، فذلك لأنني فهمتُ أنه يَطيبُ لك، وأنت ترى نفسَكَ محاطاً، لدى عودتِكَ، بتقاليد واعتبارات بَرْبَريّة، أنْ تعلَمَ أن هناكَ إنساناً يُقدِّرُك كلَّ التقدير، لأن لديكَ الشجاعةَ على مقاومة هذهِ التقاليد! »

ثم نَهَضَتْ وهي تقولُ:

« هيَّا بنا!.. لنترُكِ الحديثَ عن هذه الأشياءِ الكريهة، فإنها تُصدِّعُ رأسي!.. على أيِّ حال، لقد تأخَّرْنا في السَّهر.. عم مساء! »

ومدَّتْ يدَها إليه فصافحَها برزانةٍ وتأثُّر، وقال:

«أتعلمين، يا آنسة، أنه تمرُّ بي لَحظاتٌ أشعرُ فيها أن غريزةَ بلادي تستفيقُ في نفسي؟! فأحياناً، عندما أذكُرُ والدي المسكين، تلحّ عليَّ أفكارٌ رهيبة. ولكنني تخلّصتُ منها بفضلكِ، أنتِ، فشكراً لكِ ثُمَّ شكراً!»

وكان على وَشَكْ أن يَسْترسلَ في الكلام عندما أوقعت ليديا على الأرض مِلْعَقَةَ شاي؛ فأيقظَ الصوتُ العقيدَ الذي قال:

«ديلاريبيا، غداً في الساعةِ الخامسة!.. لا تتأخَّرْ!»

– «أمرُكَ، يا سيِّدي العقيد!»

٥. خنجر الكورسيكية

في اليوم التالي، وبَعْدَ عودةِ الصيّادِين بقليل، رأت ليديا وهي عائدةٌ ووصيفتَها من نُزْهةٍ على الشاطىء، شابةً ترتدي ملابسَ سوداء وتمتطي فَرَساً صغيرَ الحجم، ولكنّه قوي. وكانت تَدْخُلُ المدينةَ في تلك اللحظة ووراءَها فلاحٌ على جواد.

كان هذا الرجلُ يرتدي سترةً قاتمةً من الصوف، مخروقةً عند المِرْفَقَين. وكان يُعلّق بسَرْجِ الفَرَس مَطَرَةً[1] للماء، ومن

(١) المطرة: الترموس. وهو وعاء لنقل الماء، وغيره من ضروب الشراب. ومن مزاياه أنه يحافظ على برودة الماء أو حرارته فترة طويلة. (المترجم)

حزامِهِ يتدلى مُسَدَّس، وبيده بندقيَّةٌ ارتكزَ كعبُها في جَيْبٍ من الجلد معلّق بقربوس السَّرْج.. بالاختصار كان في بزّةِ.. قُطّاع الطُّرُق.. الذين تصورُهُمُ الروايات، أو بزّةِ الكورسيكيّ العادي عندما يكونُ على سفر.

لفتَ نظرَ الآنسة نيڤل جمالُ الفتاةِ الأخاذُ: كانتْ تبدو في نحو العشرين، وكانتْ طويلةَ القامة، بيضاءَ اللون، حمراءَ الشفتين، لعيْنَيْها زُرقةٌ مُشْبَعَةٌ ولأسنانها بياضُ الميناء النقية. وكانت تعابيرُ وجهِها تَنِمُّ عن الكبرياء والقلَق والكآبةِ جميعاً.

وكانت تَضَعُ على رأسها ذلك النِّقابَ الحريريَّ الأسود، الذي يُطْلَقَ عليه اسم «مِزّارو» والذي أدخلَهُ أهلُ جَنَوه إلى كورسيكا، وهو يُبْرِزُ جمالَ الوجه. وكانتْ جدائلُ شَعرِها الكستنائيةُ الطويلةُ تلتفُّ حولَ رأسِها كالعمامة؛ وكان ثَوْبُها نظيفاً وبسيطاً كلَّ البساطة.

وقد تسنّى للآنسة نيڤل أن تَفْحَصَ تلك الفتاة فحصاً دقيقاً، لأنها رأتْها تتوقّف في الشارع لتلقيَ بعضَ الأسئلة على أحد المارة، وعلى قَسَمات وجهها اهتمامٌ واضح. وبعد أن تلقَّتْ من الرجل الجوابَ الشافيَ همَزَتْ فَرَسَها، ولم تتوقّفْ إلا عند باب الفندق، الذي كان ينزلُ فيه العقيد وأورسو.

وبعد أن تبادلت بعض العبارات مع صاحب الفندق، قفزت بخفّةٍ إلى الأرض، ثم جلسَتْ على مقعد حجريٍّ بجانب المَدْخل، بينما ذهبَ تابعُها بالحصانَيْن إلى الإسطبل.

ومرَّتْ ليديا بثوبها الباريسيّ أمامَ الغريبة التي لم ترْفَعْ نظرها إليها. وبعدَ ربع ساعةٍ فَتَحتْ نافذَتَها فرأتْ أن تلك الفتاة لا تزالُ حيث كانت. ولم تَمْضِ لَحَظاتٌ حتى ظَهَرَ العقيدُ وأورسو عائدَيْن من الصيد. عندئذٍ وجّهَ صاحبُ الفندق كلماتٍ إلى الفتاةِ المتّشحةِ بالسّواد، مشيراً إلى الشابّ ديلاريبيا. فتضرّجَتْ وجنتاها ونهضَتْ بخفّةٍ وتقدَّمَتْ خُطُواتٍ إلى الأمام، ثم توقّفَتْ كأنها متردّدة. وكان أورسو قد أصبح في مواجهتها، فراح يتفحّصُها بفضول.

قالت بصوتٍ مضطرِب:

« هـل أنـت أورسو انطونيو ديلاريبيـا؟.. أنـا كولومبا! »

وصاح أورسو:

« كولومبا! »

وأخذَها بين ذراعَيْه وقبّلَها بحنان. فدُهِشَ العقيدُ وابنتُه، لأن الناسَ في انكلترا لا يتبادلون القُبَلَ في

الشوارع. قالت كولومبا:

« لا تؤاخذني، يا أخي، لأنني جئتُ دون أمرك!.. ولكنني علمت من أصدقائكَ أنكَ وصلْت، ومرآك عزاءٌ لي، أيُّ عزاء!... »

وعاد أورسو يُقبّلها، ثم التفت نحو العقيد، وقال:

« هذه أختي، ولو لم تُقدِّمْ لي نفسها لما عرفْتُها! كولومبا، أقدِّمُ لك العقيد توماس نيفل!.. أرجو أن تعذُرَني، يا سيِّدي العقيد، فإني لا أستطيع أن أتشرَّفَ بتناول العشاء معكما اليوم، لأن أختي... »

فقاطَعَهُ العقيدُ قائلاً:

« يا لَلشّيطان! أين تريدُ إذن أن تتناوَلَ العشاء يا عزيزي؟ أنت تعرفُ أنه لا يوجد سوى عشاء واحدٍ في هذا النُّزُل اللعين، وهو عشاؤنا.. إن ابنتي ستُسَرُّ غايةَ السُّرور بأن تنضمَّ الآنسةُ إلينا! »

ونظرَتْ كولومبا إلى أخيها الذي لم يُصِرَّ على الامتناع. ودخل الجميعُ إلى أكبر حجرةٍ في النُّزُل؛ وكان يستخدمُها العقيدُ كقاعة استقبال وكحُجْرةٍ للطعام في آنٍ واحد.

ولما قُدِّمتِ الآنسةُ ديلاريبيا إلى مس نيفل انحنَتْ لها

باحترام بالغ، ولكنها لم تتفوَّهْ بكلمة واحدة. وكان جَليّاً أنها مرتبكة. ولعلها تجلسُ للمرة الأولى في حياتها مع غرباء من المجتمع الراقي. ومع هذا لم يكن في تصرُّفاتها أيُّ شيء يغلِبُ عليه المظهرُ القرَوي. على أن طرافتها كانت تُغطّي أيّ سوء تصرُّفٍ يَبْدُرُ منها. ولقد أعْجبَتْ بها الآنسة نيفل من أجل هذا بالذات. ولما لم يكن في الفندق حُجرةٌ فارغةٌ تنامُ فيها الآنسة ديلاريبيا، لأن العقيدَ وخَدَمَهُ احتلوا جميعَ الحُجَر، فقد بالغتِ الآنسةُ ليديا في اللطف - أو الفُضول - فعرضَتْ عليها أن تقاسمها حُجْرَتَها.

وغَمْغَمَتْ كولومبا بعضَ كلماتِ شكر، ثم أسرعتْ وراء وصيفةِ ليديا لتُصْلح من زينتها. بعدَ رحلة طويلةٍ على الحصان في الشمس والغبار. وعندما عادت إلى البَهو توقَّفَتْ أمام بنادق العقيد الموضوعةِ في أحد الأركان، ثم قالت:

«ما أجمَلَها من أسلحة! هَلْ هيَ لكَ يا أخي؟»

- «كلاّ!.. إنها بنادقُ انكليزيةٌ للعقيد؛ وهي جيدةٌ بقَدْرِ ما هي جميلة!»

- «كم أتمنى أن تكون لك واحدة مثلها!»

فصاح الكولونيل:

«إنَّ إحدى هذه البنادقِ الثلاث هي بالتأكيد لديلاريبيا، فهو يستعملُها على أفضل وجه!.. اليوم، مثلاً، أربع عشرةَ طلْقةً بأربعَ عَشْرةَ قطعة!»

عندئذ قامتْ معركةٌ في مَيْدان الكرمِ والأرْيَحِيَّةِ كان المغلوبُ فيها هو أورسو، مما سَرَّ أختَهُ كلَّ السرور؛ وهو سرورٌ كان من السهل قراءتُهُ من خلال التعبير الطُّفوليِّ الساذَجِ الذي ٱلْتَمَعَ فجأةً على وجهها، بعد أن كان هذا الوجهُ في غاية الجِدِّ منذ لحظات. قال العقيد:

«إخترْ، يا عزيزي!»

ولكن أورسو ظلَّ على رفضِهِ؛ فأضاف العقيد:

«إذن فأختُكَ هي التي ستختارُ مكانَك!»

ولم تنتظِرْ كولومبا أن يُعيدَ عليها العَرْضَ مرةً أخرى، بل إنها تقدَّمَتْ وأخذَتْ أقلَّ البنادقِ زخرفةً، وهي بندقيةٌ ممتازةٌ ذاتُ عيارٍ كبيرٍ من طراز «مانتون».. قالت:

- «لا بد أن هذه تُرسِلُ الرَّصاصةَ إلى الهدف!»

وراح أخوها يَصُوغُ عباراتِ الشكر للعقيد، وهو في ذِرْوَةِ الحَرَج. وجاء العَشاءُ في الوقت المناسب ليُنقذَهُ من ذلكَ الموقف.

ولقد سُرّت ليديا أيّما سرورٍ برأى كولومبا وهي ترسُمُ علامةَ الصليب قبل أن تبدأ الأكل؛ وكانتْ قد تمنّعَتْ كثيراً عن الجلوسِ إلى المائدة، ولم تستجبْ إلاّ عقبَ نظرةٍ من أخيها.

قالت ليديا في نفسها:

« حسناً.. ها هي حركةٌ بدائية!»

وأيقنت أنها ستسجِّلُ اكثرَ من ملاحظةٍ هامةٍ بخصوص هذه الفتاةِ التي تمثّلُ العاداتِ الكورسيكيةَ القديمة.

أما أورسو فقد كان يَشْعُرُ، بالطّبع، بشيءٍ من الضيق، خوفَ أن تتكلم أختُهُ أو تتصرَّفَ حسبَ الأساليب القَروية.

وبين اللحظةِ واللحظةِ كانت كولومبا تنظُرُ إلى أخيها، وفي نَظْرَتِها شتّى معاني الاكتئاب؛ فاذا ما التقتْ أعيُنُهما كان هو أوّلَ من يُحوِّلُ بصرَهُ، كأنّهُ يتهرّبُ من سؤالٍ تُلْقيهِ عليه أختُهُ دون كلامٍ، ويفهَمُهُ هو كلَّ الفهم.

كانوا يتحدّثون باللُّغةِ الفرنسية، لأن العقيدَ كان يُعبِّرُ عن أفكاره بالإيطالية أسوأ تعبير. وكانت كولومبا تفهَمُ الفرنسية، بل إنها كانت تنطِقُ بالكلماتِ، التي كانت مُجْبَرَةً على تبادُلها مع مُضيفيها، نُطقاً جيداً.

بعدَ العَشاء عَرَضَ العقيدُ، الذي لاحظَ ضيقَ أورسو وأختِهِ، على الملازم أن ينفردَ بشقيقته إذا كان يريدُ التحدُّثَ إليها، في حين ينتقل هو وابنتُهُ إلى الحجرة المجاورة. ولكنّ أورسو سارَعَ إلى الاعتذار والشكر، قائلاً إنه سيكون لديهما الوقتُ الكافي في «بيترانرا»، وهي قريتهُما التي سيتخذ منها مَقرّاً له.

وعلى هذا اتّخَذَ العقيدُ مجلسَهُ المألوفَ من الأريكة، وراحت الآنسةُ نيفل تَطْرُقُ شتى الأحاديثِ والموضوعاتِ لكي تحملَ كولومبا الجميلة على الكلام. فلم تُفلح. ولما يئستْ من ذلك رجتْ من أورسو أن يقرأ لها نشيداً من كتاب «دانتي». إذ كان دانتي [1] شاعرها المُفضّل. فاختار أورسو من «الجحيم» ذلك النشيدَ الذي يدورُ حول «فرانشيسكا داريميني»، وراح يُلقي تلك الثُّلاثيات الرفيعة أحسن إلقاء.

كانت كولومبا كلّما مضى في القراءة اقتربَتْ من المائدة ورفعتْ رأسها الذي ظل منكّساً حتى تلك اللحظة. وكانَتْ عيناها المُحمْلقتان تلتمعانِ بنورٍ عجيبٍ، ويَتّقدُ خدّاها

(١) دانتي اليغيري أعظم شعراء إيطاليا. وقد عاش ما بين ١٢٦٥ و ١٣٢١ وأعظم آثاره « الكوميديا الإلهية »، التي عرف بها. وهي ملحمة شعرية عن العالم الآخر. (المترجم)

مرَّةً ويَشْحُبانِ مرَّةً أخرى. وهي ما بينَ ذلك تهتزُّ وترتعشُ على كُرْسيِّها.

وما إن انتهى أورسو من القراءة، حتى صاحت كولومبا:

« ما أجملَهُ!.. مَنْ صَنَع هذا، يا أخي؟ »

فامتعض أورسو قليلاً؛ وتولّتْ ليديا الإجابةَ، فقالت! إن الذي صنعَهُ شاعرٌ فلورنسيّ مات من عِدَّةِ قرون. وقال لها أورسو:

« سأُعْطيكِ دانتي لتقرأيهِ عندما نصبحُ في بيترانرا! »

وعادتْ كولومبا تكرِّر إعجابَها:

« يا إلَهي، ما أَرْوَعَه! »

وردَّدت ثلاثَ أو أربعَ ثُلاثيّاتٍ حفِظَتْها من تلك القراءةِ الأولى. وبدأت تُرَجِّعُها بصوت منخفض؛ ثم ازدادت حماسَتُها، فرفَعَتْ صوتها، وراحت تُلْقيها بتعبيرِ أعمقَ بكثيرِ من تعبير أخيها. قالت لها ليديا، وهي في غاية الدهشة:

« يلوحُ أنك تحبّينَ الشِّعرَ إلى حدٍّ بعيد؟! كم أَغْبِطُكِ على السعادة التي ستجدينها عندما تقرأين دانتي لأوّل مرة! »

وقال أورسو:

« أترين، يا آنسة نيفل، أيُّ قدرةٍ ينطوي عليها شِعرُ دانتي، حتى ليَهُزَّ مُتَوَحِّشَةً صغيرةً لا تعرفُ سوى « أبانا »؟!.. ولكن.. لا.. إنني مخطىء.. الآنَ أذكُرُ أن كولومبا من طائفة الشعراء: فمنذُ مَطْلَعِ صباها كانت تتدرَّبُ على صياغة الشِّعر. وكان والدي يكتُبُ لي أنها أصبحت أعظمَ ندَّابةٍ في بيترانرا وما يحيطُ بها من القُرى على بُعْد فَرْسَخَيْن! »

فرمَقَتْ كولومبا أخاها بنظرة. وكانتِ الآنسة نيفل قد سمعَتْ بمرتجلات الشِّعر الكورسيكيات. وهي تتحرَّقُ شوقاً لسماع إحداهنّ. ولهذا بادرَتْ إلى الرّجاء من كولومبا أن تُسْمِعَها شيئاً من آثار نبوغها. فتدَخَّلَ أورسو. وقد تكدَّر لأنه ذكرَ موهبةَ أختِهِ في الشِّعر. وعبثاً أقسَمَ أنه لا شيءَ يَعْدِلُ في التفاهةِ مَرْثِيَةً كورسيكية. واحتجَّ بأنّ تلاوةَ الشِّعر الكورسيكيّ بعدَ دانتي يُعَدُّ خيانةً وطنية. فلم يكنْ ذلك إلا ليزيدَ رغبَتَها حِدَّةً واتّقاداً. فاضطُرَّ آخرَ الأمرِ أن يقولَ لأخته:

« ما دام الأمرُ كذلك فارتجلي شيئاً.. وليكُنْ قصيراً! »

فأرسلَتْ كولومبا زفْرةً. وحدَّقتْ دقيقةً إلى غطاء

المائدة ثم إلى جُسور السقف؛ وبعد ذلك وضعَتْ يدَها على عينَيْها. كتلكَ الطيور التي تَطْمَئِنُّ ويخَيّلُ إليها أن أحداً لا يراها إذ لا ترى أحداً أمامها. ثم أنشدَتْ، أو بعبارةٍ أصحَّ، تلَتْ بصوتٍ مُضْطَرِبٍ هذه المرْثاة:

« هناك، في الأَبعاد، خَلْفَ الجبال،
في قاعِ وادٍ، بعيدِ القرار،
لا يجتلي الشمسَ سوى ساعةٍ،
بيتٌ عبوسْ
في بابه الأعشابْ
مُغَلّقةٌ منهُ كلُّ النوافذْ
ولا يُرى يَخْرُجُ منه الدُّخان!
لكنّما في الظهيرة،
إذ تُشْرِقُ الشمسُ على المنزل؛
تفتَحُ في رُكنِهِ نافذة!
وتجلسُ في الشمسِ تلك اليتيمة!
وتمضي تُحرِّكُ دولابَها،
وتَشْدو، وتَغْزِل..
وفي شَدوِها لَوْعةٌ واكتئابْ!
وما من مُجيبٍ لهذا الغناء!
وحَلَّ الربيعْ..

وأقبَلَ يوم،
فحطَّت، على فَنَنٍ قُرْبها،
يمامةُ أيْك.
فقالت وقد سمِعَت شَدْوَها:
« تأسَّيْ ولا تَجْزَعي، يا فتاة!
فاني، أنا، قد فَقَدْتُ الأليف!
سطا الصَّقْرُ يوماً على عُشِّنا،
وطارَ به فوق هامِ السحاب! »
فقالت: أريني هذا الغَشوم،
لأَقْتَصَّ منه،
وأُسْقطَهُ من أعالي السماء!
ولكنْ.. أنا.. مَنْ يُعيدُ إليَّ الشقيقَ،
وقد بَعُدَتْ دارُهُ؟ »
أجابت: « أنا، يا فتاتي الحزين!
إلى أيِّ أرض مضى، يا فتاة؟
فهذا جناحي،
سَيَحمِلُني، إن تشائي، إليه! »

قال أورسو:
« يا لها من يمامةٍ مُهذّبةٍ لطيفة! »

وأقبلَ على أختِهِ يحتضنُها بتأثّرٍ بالغٍ. يتناقضُ مع لهجةِ المُزاح التي افتعلَها.

وقالت ليديا:

« إنّ أنشودتَكِ رائعةٌ حقاً! أودُّ أن تكتُبيها لي في دفتر الصُّوَر.. وسأنقلُها إلى اللّغة الانكليزية. وأكلّفُ أحد الموسيقيين بتلحينها! »

أما العقيد الذي لم يفهمْ كلمةً واحدة، فقد ضمَّ صوتَهُ، مع ذلك إلى صوت ابنتِهِ. مُعْرِباً عن تهانئِهِ الحارَّة، ثم أضاف:

« إن هذه اليمامةَ التي تتحدَّثين عنها. يا آنستي. هي ذلك الطائرُ الذي أكلْناه مَشْوياً هذا اليوم! »

وحلّتْ ساعةُ المنام. فانسحبَتِ الفتاتان إلى حُجْرَتِها. وهناك، بينما كانت ليديا تنزعُ عقدها وحلَقَها وأساورَها، رأت رفيقتَها تُخرِجُ من تحت ثوبها شيئاً أشبه بقطعةٍ من المَعْدن وتضعُهُ بعناية. بل بحذر. تحت منديلِ رأسها. الذي كان على المنضدَة. ثم تركعُ أمامَ سريرِها وتصلّي بكل خشوع. وبعد دقيقتَيْن كانت في سريرِها.

أما ليديا. التي كانت فُضوليّةً بطبعها. وبطيئةً كإنكليزية في نزع ملابسها. فقد اقتربتْ من المائدة.

متظاهرةً بالتفتيش عن « دبُّوس »، ورفعتِ المنديلَ، فإذا بها ترى خنْجراً طويلاً مُطَعَّماً بالصَّدف والفِضة، بطريقة فنية بارعة. كانت الزخرفَةُ غايةً في الجمال، إلى جانب أن الخَنْجرَ قديمٌ وذو قيمةٍ كبيرةٍ في نظر الهُواة. قالت الآنسةُ نيڤل، وهي تبتسم:

« هل العادة هنا أن تحملَ الآنساتُ مثلَ هذه الأدواتِ الصغيرة؟ »

فأجابَتْها كولومبا متنهِّدةً:

« إنهُ لشيءٌ ضروريٌّ، نظراً لوجود كثير من الناس الأشرار! »

- « ألديْكِ الجرأةُ حقّاً على أن تَضْرِبي بِهِ هكذا؟ »

ومثّلَتْ ليديا الحركةَ والخنجرُ في يدها، مُوجّهَةً إيّاهُ من أعلى إلى أسفل، كما يفعلونَ على المسارح. وأجابت كولومبا بصوتها الموسيقيِّ الناعم:

« نعم!.. إذا اضْطُرِرْتُ إلى ذلك، دفاعاً عن نفسي أو عن أصدقائي!.. ولكن لا تُمسكيه على هذا النحو، فمن المحتمل أن تصيبي نفسَكِ، إذا خلا الشخصُ الذي أمامَكِ من الضربة! »

ثم جلسَتْ في سريرِها وأشارت قائلةً:

« أنظري!.. هكذا.. من أسفل إلى فوق!.. بهذا الشكل تكونُ الطعنةُ مميتةً كما يقولون.. ما أسعدَ الذين لا يحتاجونَ إلى هذه الأسلحة! »

وتنهَّدَتْ كولومبا وألقتْ رأسَها على الوسادة. ثم أغمضَتْ عينَيْها. لعلّهُ لا يوجدُ رأسٌ أجملُ ولا أنبلُ، ولا أنضرُ شباباً من ذلك الرأس! ويقيني أن « فيدياس »[١] ما كان ليَخْتارَ نموذجاً غَيْرَهُ لينحتَ رأسَ « مينيرڤا »[٢].

٦. أصل المأساة

لقد تَبعت في هذه القصَّة نصيحةَ « هوراس ». فبدأت من نقطة متوسِّطة. والآن. وقد هدأ كلُّ شيء وسيطر النوم على الجميع. على كولومبا الجميلة. على العقيد وابنته.... سأغتنم هذه الفُرْصَةَ لأطلع قارئي على بعض التفاصيل التي لا يجبُ أن يَجْهَلَها. إذا أراد أن يتغلغَلَ إلى صميم هذه القصة الحقيقية.

يعلمُ القارىء الآنَ أن والدَ أورسو. العقيد ديلاريبيا. قد مات مقتولاً. ولكن المرء لا يُقْتَلُ في كورسيكا كما يُقْتَلُ

(١) فيدياس: أعظم نحات في اليونان القديمة. ولد في أثينا حوالى عام ٤٣١ ق. م

(٢) مينيرڤا: إلهة الفنون والعلوم والصناعة في الأساطير اليونانية. (المترجم)

في فرنسا.. في كورسيكا يُقْتَلُ الإنسان بيَدِ أعدائه. أما السببُ الذي يخلُقُ له الأعداء. فمن الصعب جداً أن تحدِّدَه.. كثيرٌ من العائلات تكرَهُ الواحدةُ منهنَّ الأخرى لأنها وَرِثَتْ هذا العداء من زمان بعيد. فأصبح تقليداً لديْها.. ويكونُ السببُ الأساسيُّ الذي أدَّى إلى الكُرْهِ والضَّغينةِ قد ضاعَ في تضاعيفِ الأيام. ولم يَعُدْ أحدٌ يعرفه.

كانت الأسرةُ التي ينتمي إليها العقيد ديلاريبيا. تحمل البغض والعداء لمجموعة من الأُسر الأخرى. ولكنَّ حِقْدَها على أسْرَة باريتشيني لم يكن له أيُّ مثيل. ويروي البعضُ أنّه، في القرن السادس عشَرَ، أقدَمَ أحدُ الشبّان من أسْرة ديلاريبيا، على إغواء فتاةٍ من أسرة باريتشيني. فتصدّى له أحدُ أقارب الفتاة، التي لحِقَها العار، فقضى عليه بطعنة من خنجره.

على أن هناك من يَرْوي القصة على نحوِ مُغايرِ تمام المغايَرَة، فيدَّعي أن الفتاةَ التي أُغويَتْ كانت من أسرة ديلاريبيا، والفتى من أسرة باريتشيني.. وسواء كانت هذه الروايةُ هي الصحيحة أو تلك. فالمهمُّ في الأمر أنه أصبح بين الأسرتين « دمٌ »، حسب التعبير المألوفِ في تلك البلاد.

ومع ذلكَ. ورغمَ العادةِ المُتَّبعة، فإنَّ هذا الاغتيالَ لم

يؤدِّ إلى اغتيالاتٍ أخرى، لأن كلتا الأسْرَتَيْن كانت مضطهَدَةً من الحكومة الجَنَويَّة. ولما كان جميع الشبان يغادرون موطنَهمْ هرباً من الملاحقة والاضطهاد، فقد ظلَّتِ الاسرتـان عـدة أجيال، محرومتَيْن من ممثِّليهما الأشداء.

* * *

في أواخرِ القرنِ الماضي وقعَتْ حادثةٌ لرجل من أسرة ديلاريبيا، وكان ضابطاً في جيش نابولي. فبينما كان في أحدِ نوادي القمارِ اختصم مع بعض الضباط، الذين راحوا يكيلونَ له الشتائم، ومنها تسميتُهُ «بالمعّاز الكورسيكي»؛ فجرَّدَ سيفه.. ولكنه كان بمُفْرَدِهِ أمامَ ثلاثة، وكان من المحتمل أن يفقدَ حياتَهُ لولا أن انبرى أحدُ اللاعبين وصاح:

«وأنا أيضاً كورسيكيٌّ!» ووقف إلى جانبهِ ضدَّ أولئكَ الخصوم.

كان ذلك الغريبُ من آل باريتشيني، ولكنَّهُ لم يكنْ يَعْرِفُ ابنَ بلده؛ ولما تعرَّفَ كلٌّ منهما إلى صاحبِهِ أظهرَ له كلَّ مَوَدَّةٍ واحترام؛ ثم تعاهدا على الصداقة إلى الأبد. ذلك أن الكورسيكيينَ، إذا اجتمعوا في القارَّةِ الأوروبية، اتصلت بينهمْ أسبابُ الوُدِّ والإخاء بيُسْرٍ وسهولة، ولكنَّ حالَهُمْ. داخلَ جزيرتِهم، على النقيضِ من ذلك تماماً. وقد

وضحَتْ تلك الظاهرةُ كلَّ الوُضوحِ في هذه المناسبة بالـذات. فإنَّ الشابَّيْن، ديلاريبيا وباريتشيني، ظلاَّ صديقيْن حميمَيْن طوالَ إقامتِهما في ايطاليا؛ فلما عادا إلى كورسيكا لم يرَ أحدُهما الآخرَ إلا مرّاتٍ معدودةً؛ وعندما تُوُفِّيا قيل إنَّهُ مَرَّتْ عليهما خمسةُ أو ستةُ أعوامٍ لم يتبادلا فيها الحديث.

وقد سار ولداهما على هذه القاعدة: وكان أحدُهما، وهو غلفيشيو والد أورسو، جندياً؛ أما الآخر، وهو جيودتشي باريتشيني، فقد كان محامياً. وأصبح كلٌّ منهما عميداً لأسْرتِهِ. وقد انقطعَ كلٌّ منهما إلى عمله، فلم يَجِدْ فرصةً للاجتماع بالآخر، أو لسماعِ أيِّ شيء عنه. غير أنهُ حدثَ، حوالَى عـام ١٨٠٩، أن قرأ جيودتشي، في مدينـة «باستيا» خبراً في إحدى الصحف يقول إنه أُنعِمَ بوسام على الكابتن غلفيشيو؛ فقال جيودتشي أمامَ بعض الناس أن هذا النبأ لم يُدْهِشْهُ لأنَّ من المعروف أن الجنرال... يحمي أسرة ديلاريبيا.

ونُقلَتْ هذه الكلمةُ إلى غلفيشيو في «ڤيينا»، فقال لأحد المواطنين الكورسيكيِّينَ إنه عندما يعودُ إلى كورسيكا سيجدُ «جيودتشي» وقد أصبح من الأثرياء، لأنه يكسَبُ من القضايا الخاسرة أكثرَ بكثيرٍ من القضايا

الرابحة. ولم يُعْرَفْ بالضَّبط إن كان يلمِّحُ بذلك إلى أنَّ المحاميَ كان يخونُ مُوكِّليه، أو أنَّهُ اقتصرَ على التعبير عن تلكَ الحقيقةِ المبتذَلَة، وهي أنَّ قضايا الشرِّ أجدى على المحامين من قضايا الخير. وأياً ما كان الأمرُ فقد عَلِمَ باريتشيني بهذا التعريض ولم يَنْسَهُ من بعد ذلك.

وفي عام ١٨١٢ طلب باريتشيني أن يكونَ عُمْدَةَ المنطقةِ؛ وكان له كلُّ الأمل في أن يَحْظَى بذلك المنصب، غير أن الجنرال... كتبَ إلى الحاكم مُوصياً بشخصٍ آخر من أقــارب زوجــة غيلفيشيو. ولكن، بعــد سقوط الامبراطور عام ١٨١٤، وُشيَ بالرَّجلِ الذي يتمتّعُ بحماية الجنرال، بأنّهُ بونابَرْتيُّ الهوى، فاستُبْدِلَ به باريتشيني في منصِبِ العمدة.

وعُزِلَ هذا الأخيرُ بدَوْرهِ خلال «المائة يوم»[1]. غير أنه ما إنْ ولّتْ هذه العاصفةُ، حتى استعاد، في احتفال فَخْمٍ مَهيب، خاتم العمادة وسجلاّتِ الأحوال الشخصية. ومنذُ ذلك اليوم علا نجمُهُ والتمع أكثر من أيِّ وقت مضى.

---

(١) المائة يوم هي الحقبة التي مرت منذ عودة نابليون بونابرت إلى باريس في ٢٠ آذار عام ١٨١٥ إلى ٢٢ حزيران من نفس السنة، وهو تاريخ تنازله الثاني عن العرش. (المترجم).

وأحيلَ العقيد ديلاريبيا إلى قُوات الاحتياط. وعاد إلى بيترانرا، حيث اضطرَّ إلى مواجهة حرب خَفيّة. مع العُمْدة، من المنازعات المتجدِّدة بصفةٍ مستمرَّة. فمرّةً تُفْرَضُ عليه تعويضاتٌ عما ألحقه حصانُهُ من أضرارٍ في أسْيجة السيد العمدة. ومرَّةً يتذرَّعُ هذا، بحجّةِ تجديد البلاط في الكنيسة، فينزع بلاطةً مكسورة عليها شعارُ آل ديلاريبيا وتقومُ فوق قبر فرد منهم. وإذا أكلَتِ الماعزُ غراسَ العقيد فإنَّ رعاتَها يجدون الحمايةَ من العمدة. كذلك عُزِلَ البغّالُ الذي كان يديرُ مكتبَ البريد في بيترانرا. ثم الناطورُ - وهو جنديٌّ قديمٌ فقدَ أحدَ أطرافه في المعارك - أحدُهما بعدَ الآخر. لأنهما مُواليانِ لآل ديلاريبيا؛ وفي مكانهما عُيِّنَ اثنانِ من أسرة باريتشيني.

وتُوُفِّيتْ زوجةُ العقيد. وكانت قد أوصتْ بأن تُدْفَنَ في غابةٍ صغيرةٍ كثيراً ما كانت تحبُّ التنزُّه فيها. فانبرى العمدةُ ليُعْلِن أنها ستُدْفَنُ في الجبّانة العامةِ للمنطقة. لأنهُ لا يملكَ تفويضاً يخوِّلُهُ السماحَ بإقامة قبرٍ منفرد. فهاجَ العقيدُ وأعلنَ أنه، في انتظارِ تصريحٍ من هذا القبيل، ستدفَنُ زوجتُهُ في المكانِ الذي وقعَ عليه اختيارُها.. وعلى هذا أرسل رجالاً من عنده، فقاموا بحفر القبرِ في الغابة.

وقام العمدةُ، بدَوْرِه، بحفر حُفْرةٍ أخرى في الجبّانة.

وجمعَ الدَّرَكَ لكي يفْرِضَ حُرْمَةَ القانون، على حدِّ قوله. وفي يوم الدّفنِ وُجِدَ الجَمْعانِ وجهاً لوجه. وقد مرّتْ لحظةٌ كان يُخْشَى فيها أن يشتبكا في معركةٍ داميةٍ من أجل الاستيلاء على رُفاتِ السيدة ديلاريبيا.

كان أقاربُ الفقيدةِ قد جمعوا نحو أربعينَ رجلاً من الفلاحين المسلّحين؛ فلمّا خَرَجتِ الجنازةُ من الكنيسة، أرْغَمَ هؤلاء الرجالُ الكاهنَ على الاتجاهِ في طريق الغابة. ومن ناحيةٍ أخرى تقدّمَ العُمدةُ، وحولَهُ ابناهُ الاثنان، وأعوانُهُ، وجنودُ الدّرَك، ليقفوا دونَ تنفيذِ ذلك. ولكنْ ما إنْ ظهرَ العُمدةُ وأمرَ الموكبَ بأن يعودَ أدراجَهُ، حتى تلقّوْهُ بهُتافاتِ السُّخر والتهديد. وكان التفوُّقُ العَدَديّ في جانب خصومه، الذين كان يبدو عليهمُ التصميمُ التامّ. وقد خُرْطِشَتْ عدّةُ بنادق.. بل يقالُ إن أحدَ الرُّعْيانِ قد سدّدَ البُنْدقيّةَ إلى صدْرِه. إلا أنّ العقيدَ سارعَ إلى رَفْعِها بيدِهِ قائلاً:

« لا يُطْلقَنّ أحدٌ دونَ إذْنٍ مني! »

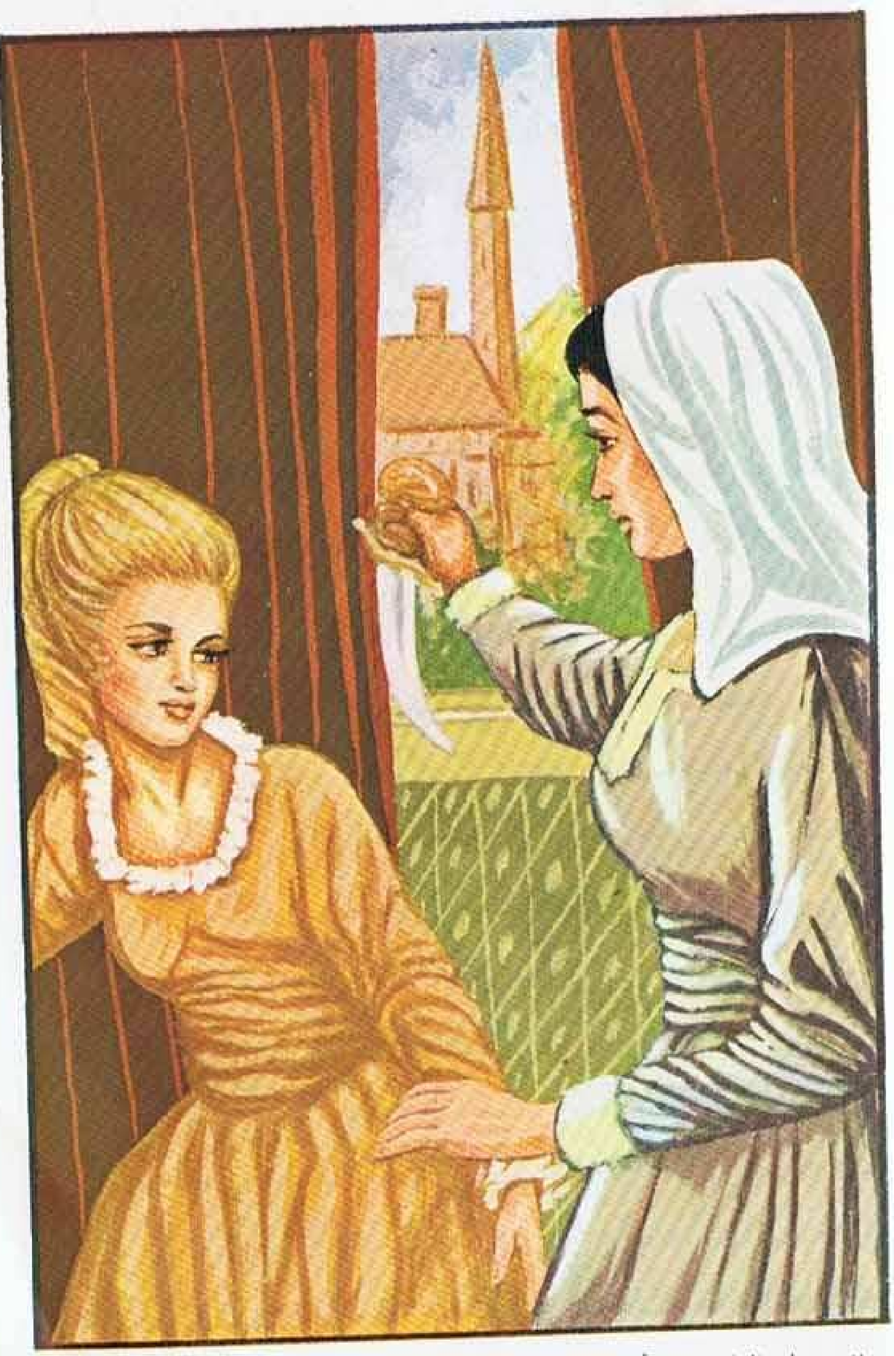
وكان العُمدة، بالطبع، يَخْشَى الضَّرْب، على مثال « بانورج »[1]؛ ولهذا فقدِ انسحَبَ هو وحاشيته لتفادي

(1) بانورج: هو أحد أشخاص رابليه، في كتابه بانتاغرووبل، وكان صورة للنذالة والجبن. (المترجم)

المعركة. عندَ ذلكَ مضَى الموكبُ الجنائزيُّ مُتحرّياً أن يسْلُكَ أبْعدَ الطُّرُق إلى الغابة، لكي يمُرَّ أمامَ مقرِّ العمدة. ولكن في أثناءِ سيْرِه أقدم رَجُلٌ معتوهٌ، كان قد انضمّ إليه، على الهُتاف بحياةِ الامبراطور.. وأجابهُ صوْتان أو ثلاثة. واتّقدَتْ حماسةُ الأنصار، فاقترحوا قتْلَ ثورٍ يمْلكُهُ العُمْدةُ كان يقفُ صُدْفَةً في طريقهم؛ ولكنّ العقيدَ منَع، لحُسْن الحظ، هذا التدبيرَ العنيف.

ولا غرابةَ بعْدَ هذا أن تُوْضَعَ مُذكَّرة بكلّ ما حدث. وإلى جانب ذلك كتَبَ العُمْدةُ تقريراً موجّهاً إلى حاكم الجزيرة، صاغَهُ بأرفع أسلوب يَصِلُ إليه بيانُهُ. وقد وصَفَ فيه كيف أنّهُم داسوا القوانينَ على اختلافها، وتجاهلوا وحقّروا مركزه ومركز الكهّان. واتهم العقيد ديلاريبيا بتزعم مؤامرة بونابَرْتيّة لتغيير النظام الخاصّ بوراثة العَرْش، وتحريض المواطنين على محاربةِ بعضهم بعضاً، وهي جرائمُ تنصُّ عليها المادتان ٨٦و ٩١ من قانون العقوبات.

وقد أضرّتْ هذه المبالغةُ الشديدةُ بالغَرَض المطلوب منها. وكتب العقيدُ إلى الحاكم وإلى النائب العام. وكان لزوجته قريبٌ على صلاتٍ وثيقةٍ بأحد نواب الجزيرة، وآخر يَمُتُّ بِصلَةِ النسب إلى رئيس المحكمة الملكية العليا. وبفضل هذه الشفاعاتِ أُفسِدَتِ مؤامرةُ العُمْدة، وظلّتِ



٢ - هل العادة هنا أن يحمل الإنسان هذه الأدوات الصغيرة؟

السيدةُ ديلاريبيا في مكانها من الغابة. واقتصر الأمرُ على معاقبة الرجل المعتوه بالسّجن خمسةَ عشرَ يوماً.

ولم يرْضَ المحامي باريتشيني عن هذه النتيجة. فحوّل مدافعهُ إلى جهةٍ أخرى: نَبَشَ حُجّةً قديمةً بدأ بواسطتها منازعةَ العقيدِ ملْكيّةَ جدْولٍ من الماء كان يُستخدمُ في إدارة طاحونٍ هناك. وأقام. في هذا المعنى. دعوى على العقيدِ استمرّت مُدّةً طويلة.

بعد مضيّ عامٍ كانت المحكمةُ ستُصْدرُ حُكْمها في هذهِ القضية. وكانت جميعُ القرائنِ تدُلُّ على أن الحكمَ سيكونُ في صالح العقيد.. في هذا الوقتِ بالذات وضعَ السيّد باريتشيني بين يدَي النائبِ العامّ رسالةً موقّعةً باسْم رجلٍ يدعى آغوستيني - وهو لصٌّ ذائعُ الصيتِ - يُهدّدُه كاتبُها. وهو عمدةُ البلد. بالقتل وبإشعالِ النارِ في ممتلكاته. إنْ لم يتنازلْ عنِ ادّعائه. والمعروف في كورسيكا أنّ حمايةَ اللّصوصِ مرْغوبٌ فيها إلى حدٍّ بعيد. وأنّ هؤلاء اللصوصَ كثيراً ما كانوا يتدخّلون في الخصومات والمنازعاتِ الشّخصية. لخدمةِ أصدقائهم. وقد راحَ العُمْدةُ يَسْتَغلُّ هذا الخطاب. وفي هذا الوقتِ وقعَ حادثٌ جديدٌ عقّدَ المسألةَ تعقيداً كبيراً: ذلك أنّ اللصّ كتبَ إلى النائبِ العامِ شاكياً من كوْنِ إمضائهِ قد قُلّد. وأثيرتِ الضجّةَ

حَوْلَهُ بحيثُ صُوِّرَ أنَّهُ رَجُلٌ يتاجرُ بسَطْوتِه. وقال في نهاية خطابِهِ: «إن عَثَرْتُ يوماً على مُقلّدِ إمضائي فسأُنزِلُ به عقاباً يجعلُهُ عِبْرَةً لغيره!»

وكان من الواضح أن آغوستيني لم يُرْسِلِ الكتابَ الأوّلَ إلى العُمدة. واتّهمَ آلُ ديلاريبيا آلَ باريتشيني بوضع هذهِ الرسالة. ولم تدرِ المحكمةُ في أيِّ فريق يوجَدُ المذنبون.

عندما وصَلَتِ الأمورُ إلى هذا الحدِّ قُتِلَ العقيدُ غيلفيشيو. وها هي الوقائعُ كما أُثبِتَتْ أمامَ العدالة:

في اليوم الثاني من شهر آب عام ألف وثمانمئة و... قُبَيْلَ الغروب سَمِعَتِ المَدْعُوَّةُ مادلين بيتري، التي كانت تحملُ كميّةً من الحبوب إلى بيترانرا، صوتَ طَلْقَتَيْن ناريَّتَين أُطْلِقَتا، حسَبَ تقديرِها، في أحد الدُّروب المُؤَدِّية إلى القرية، على بُعْد نحو مئة وخمسينَ خطوةً من المكان الذي كانت فيه. وعَقِبَ ذلك رأتْ رَجُلاً يعدو مُنْحَنياً في دَرْبٍ بين الكروم، في طريقِهِ إلى القرية. وتوقّفَ الرجلُ لحظةً، والتفتَ إلى الوراء؛ ولكنَّ المسافةَ لم تسمَحْ للمرأة بمعرفته. وعلى كلِّ حال فإنّهُ كان يحملُ بين شفتَيْه ورقةً عريضةً من أوراق العِنَب، كانت تحجُبُ معظمَ وَجْهِهِ. وأشار بيدِهِ لرفيقٍ له لم ترَهُ الشاهدة، ثم اختفى بين الكروم.

فوضعتِ المرأةُ حمْلَها على الأرض. وصَعَدتِ الدَّرْبَ جَرْياً، فوجدَتِ العقيد ديلارييبا سابحاً في دَمِه. وقد اخترقَتْ جسدَهُ رصاصتانِ اثنتان: غير أنّهُ كان لا يزالُ يتنفّس. وبالقرب منه كانت بندقيّتُهُ مَحْشُوَّةً ومُخَرْطَشة. كما لو كان قد شرع في الدِّفاع عن نفسِهِ ضِدَّ شخصٍ يهاجمُهُ من أمام، في الوقت الذي أطلقَ عليهِ آخرُ النارَ من الخلْف.

كان يُحَشْرِجُ ويصارِعُ الموتَ.. ولم يكنْ يستطيعُ أن ينطِقَ بكلمةٍ واحدة. وقد فسَّر الأطباءُ ذلكَ بطبيعةِ جراحِهِ التي تخترقُ الرِّئةَ من جانب إلى آخر. كان الدَّمُ يخنُقُه.. وكان يسيلُ ببطء كالرغوة الحمراء. وعبَثاً حاولتِ المرأةُ بيتري أن ترفعَهُ وتُوَجِّهَ إليه الأسئلة. كانت ترى بوضوحٍ أنّهُ يريدُ أن يتكلّم. ولكنّهُ لم يكنْ قادراً على توضيح كلامِهِ. ولاحَظَتْ أنّهُ يحاولُ أن يَرْفَعَ يدَهُ إلى جيبه. فأسرعَتْ في مدّ يدِها إلى الجيب. واستخرجتْ منه مفكِّرةً صغيرةً قدَّمَتْها إليه مفتوحةً. فأخذ الجريحُ القلمَ من المفكّرة وراح يحاولُ الكتابة. وقد رأتْهُ الشاهدةُ يخطُّ. بعناءٍ شديدٍ. بعضَ الحروف التي لم تَفْهَمْها. لجهْلِها القراءة.

وأنهكَهُ هذا المجهودُ. فتركَ المذكِّرةَ في يدِ المرأة. وضغطَ على تلك اليدِ بكلِّ ما تبقّى له من قُوَّةٍ. وهو ينظُرُ إلى

وجهِ بيتري نظرةً غريبةً كأنّهُ يُريدُ أن يقول لها (وهذا كلام الشاهدة):

«إن هذا شيء هام! إنه اَسْمُ قاتلي!»

وبينما كانتِ المرأةُ متوجّهةً إلى القرية صادفتْ في طريقها العُمْدَةَ باريتشيني ومعَهُ ابنُهُ ڤانسنتيلّو. وكان الظلامُ قد بدأ ينتشر. فروت له ما شاهدَتْهُ. فأخذ منها المفكّرة. وجرى يقومُ بدَوْرِهِ كعُمدة. ويدعو أمينَ سرِّه ودَرَكِهِ.

وبقيتِ المرأةُ مع ڤانسنتيلو الشابّ: فاقترحَتْ عليه أن يذهبا لمعونة العقيدِ ومحاولةِ إنقاذه. إن كانت لا تزالُ فيه بقيةٌ من حياة. ولكنه أجابَ بأنهُ إن اقتربَ من هذا الرجل. الذي كان عَدُوّاً لدوداً لعائلته. فلا بد أن تُلْصَقَ به تهمةُ قتله.

بعد ذلك بقليل وصلَ العُمْدَةُ إلى مكانِ الحادثِ فوجدَ العقيدَ قد فارَقَ الحياة: فأمَرَ بنقل الجثّة. ثم كتَبَ مَحْضراً بذلك.

وقد انهمكَ السّيدُ باريتشيني. بالرَّغم من اضطرابه الطبيعيِّ في مناسبةٍ كهذهِ. انهمكَ بختم مفكِّرةِ العقيدِ بالشمع الأحمر، وبإجراءِ جميع الأبحاثِ الممكنة. ولكنَّ أياً

من هذهِ الأبحاثِ لم يُؤدِّ إلى نتيجةٍ ذاتِ بال.

وعندما وَصلَ قاضي التحقيقِ فُتِحتِ المذكرةُ؛ فوُجد في صفحةٍ من صفحاتها ملطخةٍ بالدم، عدّةُ أحرفٍ خطّتْها يدٌ ضعيفةٌ غيرُ مستقرّةٍ. ولكنّ الأحرفَ كانتْ مقروءةً بوضوح.. كان مكتوباً: « آغوستي »

غير أنّ كولومبا ديلاريبيا، التي دعاها القاضي، طَلَبتْ أن ترى المفكّرة، وراحتْ تقلّبُ أوراقها بتمعّنٍ مُدّةً طويلةً؛ ثم مدّتْ يَدَها نحوَ العمدةِ وصاحتْ: « ها هُو القاتل! ».

ثم مَضتْ تروي، بدقّةٍ ووضوحٍ مُذْهلَين، أن والدَها كان قد تَلقّى، قبلَ ذلكَ بأيامٍ قليلةٍ، خطاباً من ابنهِ، وأنّهُ أحرقَ هذا الخطاب؛ ولكنه، قبل أن يفْعلَ، كَتَبَ في مفكّرتِهِ، بقلمِ الرّصاص ، عنوانَ أورسو، الذي نُقلَ حديثاً إلى فرقةٍ جديدة.. وهذا العُنوانُ اختفى من المفكّرة! واستخلصَتْ كولومبا من ذلك أن العُمدةَ قد نزعَ الورقةَ التي تحملُ العنوانَ. ولا بُدَّ أنها هي التي كَتَبَ عليها والدُها اسم القاتل. وبدلاً من هذا الاسم ، اسم القاتل الحقيقيّ، وضعَ العُمْدةُ اسْمَ آغوستيني.

ورأى القاضي أن هناك ورَقَةً ناقصةً بالفعل. غير أنّه

لاحظَ كذلك أنّ المفكّراتِ الأخرى، التي تَضُمُّها محفظةُ القتيلِ، ناقصةٌ منها عِدّةُ أوراق. وأعلن بعضُ الشهودِ أنه كان من عادة العقيد أن ينتزعَ الورقَ من مفكّراته، عندما كان يُريدُ إشعالَ « السيكار ». وعلى هذا فإنّهُ من المُحْتَملِ أن يكون قد نَزَعَ الورقةَ التي كتبَ عليها العنوان، دون أن ينتبهَ إلى ذلك.

وذُكِرَ، من ناحيةٍ أخرى أنّ العُمدة، عندما تسلّم المفكرةَ من المرأة بيتري، لم يستطعْ قراءتَها نظراً لانتشارِ الظّلام. وأثبتَ أنه لم يَتوقّفْ لحظةً واحدةً قبلَ دخوله الدائرةَ. وقد رافقَهُ إليها قائدُ الدّرك. ورآهُ يُشْعِلُ مِصباحاً ويَضَعُ المفكّرةَ في غِلاف. ثم يختمُ الغلافَ تحت بصرِه.

وما إنْ أكملَ قائدُ الدّرَكِ اعترافَهُ، حتى ارتمتْ كولومبا عند قدَمَيْه. وقد خرجَتْ عن طورها ثم راحَتْ تستحلفُهُ بكلِّ ما هو مقدّس لديه إذا كان قد ترك العمدة منفرداً لحظة واحدة وتردد الدركيُّ باديءَ الأمر وعلى وجهه أماراتُ التأثر من شدّة انفعال الفتاةِ الملتاعة. ثم اعترف بأنه ذهب ليأتي بورقة كبيرة؛ إلا أنه لم يغبْ أكثرَ من دقيقةٍ واحدةٍ كان العمدةُ يتحدّثُ إليه خلالها دون انقطاع، بينما كان، هو، يفتّشُ عن الورقة بالتّلمُّس في أحد الأدراج. ولكنه أكدَ، على كلِّ حال، أنه، لدى عودته،

وَجَدَ المفكّرةَ الدامية في نفس المكان من المائدة، حيث رماها العَمدَةُ ساعة دخوله.

وأدى السيد باريتشيني شهادَتَهُ بهدوءٍ ما بعدَهُ هدوء. قال إنه يغتفرُ للآنسة ديلارييبيا هِياجها وحِدَّتَها. وإنه يَقْبَلُ، عن طِيبِ خاطرٍ، أن يُبرّر موقفَهُ. وعلى هذا أثبَتَ أنه ظلَّ في القرية طوال فترةِ السهرة. وأنَّ ابنَهُ ڤانسنتيلو كان في صحبتِهِ أمام الدائرة، ساعة وقوعِ الجريمة. كما أنَّ ابنَهُ الآخر أورلندتشيو كان مصاباً بالحُمَّى في ذلك اليوم بالذات، ولم يغادِرْ سريرَهُ ألبتَّة. وعرض جميعَ البنادقِ التي تمتلكُها الأسرة، فلم يَكُنْ بينَها واحدةٌ قد استُخْدِمَتْ حديثاً.

وأضاف، فيما يتعلّقُ بالمفكّرة، أنه أدركَ، منذُ اللحظةِ الأولى، ما لَها من الخطورة؛ ولهذا بادرَ إلى خَتْمها وتسليمها إلى مساعدِهِ، متحسّباً لما يمكنُ أن يُوجَّهَ إليه من الشكِّ والارتياب بسببِ العداء الذي كان بينه وبين العقيد.

وذكر أخيراً أن آغوستيني كان قد هَدَّد بقتل الذي كتبَ رسالةً باسمه. ولَمَّحَ إلى أنهُ من المحتمل أن يكونَ هذا الشقيُّ قد شكّ في العقيد فقتلَهُ. وثأرٌ كهذا يتمّ لسببٍ من هذا النوع ليس غريباً في تاريخ اللصوص ولا متعارضاً مع

عاداتِهم وأخلاقِهم.

بعد انقضاء خمسةِ أيامٍ على موت العقيد ديلارييبيا، فاجأت فصيلةٌ من فصائلِ القنّاصة اللصَّ آغوستيني وقتَلَتْهُ، بعد أن قاومَ مقاومةَ اليائس. وقد عُثِرَ معه على رسالةٍ من كولومبا تستحلفُهُ فيها أن يُعلنَ صراحةً إن كان قد ارتكبَ هذه الجريمة التي نُسِبَتْ إليه.

ولما لم يُعطِ جواباً، فقد استُنتِجَ من ذلك، بصفةٍ عامة، أنه لم يجدِ الجرأة على أن يُعلِنَ لفتاةٍ مكلومةٍ أنَّهُ قتلَ والدها. غير أن الأشخاصَ، الذين كانوا يَدَّعُون معرفةَ آغوستيني على حقيقتِهِ، كانوا يقولونَ سرّاً إنه لو كان هو الذي قتلَ العقيدَ لافتخرَ بذلك ولم يكتُمِ الأمر.

وسلّم لصٌّ آخرُ، يُدْعَى براندو لاتشيو، إلى كولومبا تصريحاً خطيّاً يَشْهَدُ فيه، مُقسماً بشرَفِهِ، على أن رفيقَهُ بريءٌ من هذه التُّهمة. ولكنَّ الدليلَ الوحيدَ الذي يقدّمُهُ هو أن آغوستيني لم يَقُلْ له قطُّ إنَّهُ يَشُكُّ في العقيد.

وكانت النتيجةُ أن آل باريتشيني لم يُمَسُّوا بسوء. بل إن قاضيَ التحقيقِ صاغ عقودَ المديح للعُمدة. وتوّجَ هذا الأخيرُ مسلكَهُ المثاليَّ بالتنازل عن جميع مطالبِهِ بخصوص المجرى المائيَّ، الذي أقيمَتْ بسببِهِ الدعوى بين العُمدةِ والعقيد.

وارتجلت كولومبا، أمام جُثّةِ والدِها، مرثاةً سمعَها
جميعُ الأصدقاء الذين تجمَّعوا حولَ الفقيد. وفيها عَبَّرَتْ
عمّا انطوتْ عليه نفسُها من حقدٍ وكراهيةٍ لآل باريتشيني.
واتّهمَتْهُمْ على رؤوس الأشهاد بالجريمة، مُتوعِّدةً إياهم بالثأر
الذي سيتولاّهُ أخوها. وهذه المرثاةُ، التي أصبحت شعبيةً
إلى أبعد الحدود، هي التي غنّاها البحّارُ أمام الآنسة ليديا.

ولما علمَ أورسو بمقتل والدِه، وكان في شمالي فرنسا،
طلبَ إجازةً ولكنه لم يستطعِ الحصولَ عليها. واعتقدَ، في
بادىء الأمر، أن آل باريتشيني هم الجناة. وذلك على أثرِ
ورُودِ رسالةٍ من شقيقتِه. غيرَ أنهُ لم يلبثْ أن تسلّمَ نسخةً
عن جميع أوراق التحقيق، في هذه القضية، مع خطابٍ
شخصيٍّ من القاضي أقنعهُ إقناعاً يكاد يكون تاماً بأن
الجاني ليس سوى اللصِّ آغوستيني.

وكانت كولومبا تكتُبُ إليه كلّ ثلاثةِ أشهرٍ مكرِّرةً
شُكوكَها، التي كانت تسمّيها براهين. وبالرغم منه كانت
هذه التُّهَمُ تجعلُ الدَّمَ الكورسيكيَّ يفورُ في عروقه. وكان
يوشكُ أحياناً أن يقاسمَ أختَهُ أفكارَها وأحكامَها. ومع
ذلك فقد كان، كلما كتب إليها، يردِّدُ أن ادعاءاتِها ليس لها
أساسٌ متينٌ ولا تستحقُّ أن يُرْكَنَ إليها بأيِّ وجهٍ من
الوجوه. بل إنَّهُ كان يطلُبُ إليها - ولكنْ عبثاً - أن

تمتنعَ عن التطرُّق إلى هذه الاتّهامات.

ومرّ عامانِ على هذا النحوِ أحيلَ خلالهما أورسو إلى
الاحتياط. عندئذٍ فكّرَ أن يزورَ موْطنَهُ، لا للثّأر ممّن
يؤمنُ بأنهم أبرياء، بل لتزويج أختِه وبيْعِ ممتلكاتِه
المتواضعة، إذا كان ثمنُها يسمحُ له بالاستقرار داخل القارة.

٧. دعوة الثأر

سواءٌ أكان وصول كولومبا قد أحيا في نفس أورسو،
بصورةٍ أشدَّ وأعمقَ، ذكرى المنزلِ الأبويّ، أم أنه تأذّى إلى
حدٍّ ما من ظهور أختِهِ بملابسها القرويّةِ وطرائقها الوحْشيّة
أمام أصدقائه المتحضّرين، فإنه أعلن، منذُ اليومِ التالي،
عن عزمِهِ على مغادرةِ أجاكسيو والعودةِ إلى بيترانرا. غير
أنّهُ حملَ العقيدَ على بذْلِ وعْدٍ لهُ بأن يَقضيَ في قصرِهِ
المتواضعِ فترةً من الزمن، عندما يذهبُ لزيارة « باستيا »؛
وتعهّدَ له لقاء ذلك أن يتيحَ له الفرصةَ لصيدِ كثيرٍ من
الظِّباء والدُّيوك والخنازيرِ البرّيّة...

وفي اليومِ السابقِ لرحيلهِ اقترَحَ أن يقوموا بنزهةٍ على
شاطىء البحر، بَدَلَ الذّهابِ إلى الصيد. وساروا في
الطريق المؤدّيةِ إلى كنيسة اليونان، حيث يُرى أجمل مشهد
من مشاهد الخليج؛ إلا أن أورسو وليديا، اللّذَيْن كانا

يسيرانِ معاً، لم يكونا يُعيرانِ ذلك المشهدَ أيَّ انتباه.

قال أورسو بعد صمتٍ أوشَكَ أن يُضْجِرَهُمَا:

« آنسة ليديـا! خبِّريني بصراحة.. ما رأيُكِ في شقيقتي؟ »

أجابت: « إنها تُعجِبُني جداً! » ثم أضافتْ مبتسمةً:

« ...أكثرَ منك!.. إنها كورسيكيّةٌ بكلّ معنى الكلمة! أما أنت فهمجيٌّ متحضّرٌ أكثرَ مما ينبغي! »

– « مُتحضّر!!.. إذن فاسمعي الحقيقة: منذُ أنْ وطِئَتْ قدمايَ هذه الأرضَ وأنا أحسُّ، رغمَ إرادتي، بأنني أنقلبُ إلى إنسانٍ مُتوحّش! ألفُ فكرةٍ وفكرةٍ تحرّكني وتعذّبني!.. لهذا كنتُ في حاجةٍ إلى الحديثِ معكَ قبل أن أنطوي في صحرائي!

– « عليكَ أن تتحلّى بالشّجاعة، يا سيدي!.. أنظرْ إلى أختك!.. إنها تقدمُ إليكَ المثلَ الصالحَ بتجلّدها!

– « خلِّي عنكِ هذا!.. لا تَركَني إلى تجلّدها!.. إنها لم تَقُلْ لي كلمةً واحدةً حتى الآن، ولكنني أقرأ في كلّ نظرة من نظَراتها ما تبتغي مني! »

– « ماذا تريدُ منك؟ »

– « أوه.. لا شيء.. سوى أن أجرب بندقيةَ والدِكِ إن كانت تَصْلُحُ لاصطياد الانسانِ كما تَصْلُحُ لصيْد الحجَل! »

– « يا لهَذه الفكرة!.. كيف يمكنُ لكَ أن تفترضَ هذا وقد اعترفْتَ الآنَ بأنها لم تقُلْ لك شيئاً في هذا المعنى؟ »

– « لو لم تكُنْ تفكِّرُ في الثأرِ لتحدَّثَتْ إليَّ عن والدِنا قبلَ أيِّ شيء آخر.. بل لذكرَتِ اسمَ أولئك الذين تَعُدُّهُم خطـأ على ما أعلم، قاتليْـهِ الحقيقـين!.. إننـا، نحن الكورسيكيين، قومٌ ماكرون: إنَّ أختي تعلَمُ كلَّ العلم أنها لم تَبْسُطْ عليَّ بعدُ سَيطرتَها كما ينبغي.. وهي لا تريدُ أن تنفّرني، بينما لا أزال قادراً على الإفلات والهربْ.. ولكن عندما يتسنّى لها أن تقودَني إلى حافةِ الهاوية، وعندما يدورُ رأسي، تدفعُني إليها! »

ثم روى لها بعضَ التفاصيل عن مَقْتلِ والدِهِ، وعرضَ الأدلّةَ الرئيسيةَ التي تجعلُهُ يؤمنُ بأن آغوستيني هو القاتل؛ وأضاف:

« ولكن لا شيء استطاعَ أن يزحزحَ كولومبا عن اعتقادها.. لَمَسْتُ هذا في آخرِ رسالةٍ وَجَّهَتْها إليَّ: لقد أقسَمتْ على قتل آل باريتشيني! ثم ..لعلّ آلَ باريتشيني ما

كانوا اليومَ على ظهر الأرضِ لو لم تكن أختي خاضعةً لتقليدٍ مُعيَّنٍ من تقاليدنا التي تَرضَى عنها بحُكم تَرْبيتها المُتَوحِّشة.. وهذا التقليدُ يجعلُ الثأرَ من حقي أنا. بوصفي عميداً للأسْرة، كما أنَّ شرفي مرتبطٌ بذلك أوثقَ ارتباط.»

– «في الحقيقة، أنتَ تتجنى على أختك!»

– «كلا!.. لقدْ قلتِ، أنتِ نفسُكِ، إنها كورسيكية!.. أجل إنها تحملُ نفس الأفكار التي يحملُها جميعُ الكورسيكيين!.. أتعلمين لِمَ كنتُ حزيناً بالأمس؟»

– «كلا! ولكنني أراكَ، منذ فترةٍ، فريسةَ لهذه الحالات من التَّجهُّم والاكتئاب! لقد كنتَ أكثر ايناساً في الأيام الأولى لتعارُفنا!»

– «كنا عائدَيْن، أنا والعقيد، بالمركب، بعدَ الصيد، فقال لي أحدُ النُّوتيَّيْن بعاميَّته الجهنميَّة: «لقد قتلتَ كثيراً من الطرائد، ياأورس أنتون.. ولكنك ستجدُ أورلندتشيو باريتشيني أمهرَ منكَ في الصيد!»

– «إيه! وأيَّ شيء تجدُهُ رهيباً في هذا الكلام؟.. هل تدَّعي أنكَ أمهرُ صيادٍ على الاطلاق؟»

– «ولكن.. ألا ترَيْنَ أن ذلك النحسَ كان يرمي إلى أنني لن أجرؤَ على قتل أورلندتشيو؟»

– «أتدري، يا سيِّد ديلاريبيا؟.. إنكَ لتُخيفني حقاً!.. يبدو أنَّ جوَّ جزيرتِكم لا يصيبُ بالحُمَّى فقط، بل وبالجنون أيضاً!.. من حُسْن حظِّنا أننا سنغادرُها قريباً!»

– «لن تَبْرحاها قبلَ أن تزورا بيترانرا!.. أذكري أنكِ وعدتِ أختي بذلك!»

– «وإن أخْلفنا فعلينا بالطبع أن نتوقَّعَ الثأرَ والانتقام!»

– «أتذكرينَ ما كان يَرْويهِ والدُكِ، منذ أيامٍ، عن أولئك الهنود الذين يهدِّدونَ الشركةَ بتَرْكِ أنفسِهم يموتون جوعاً إن لم تَسْتَجبْ إلى مَطالبهم؟»

– «هل يعني ذلك أنكَ ستُضربُ عن الأكل حتى تموتَ جوعاً؟!.. إنني أشكُّ في ذلك.. قد تظلُّ يوماً بلا طعام.. ثم تُحضِرُ لك كولومبا طبقاً شهياً من البروتشيو (طعام وطني) فتُقْلع عن مشروعك!»

– «إنكِ قاسيةٌ في سُخرك!.. عليكِ أن تراعيني.. ألا ترَيْنَ أنني وحيدٌ هنا؟.. لم يكُنْ لي أحدٌ سواكِ يمنعني من «الجنون»، كما تقولين. لقد كنتِ ملاكي الحارس!.. والآن...»

قالت ليديا بجدّ:

« والآن لديكَ شرفُك، كرَجُلٍ وكجنديّ، يُثبِّتُ لكِ هذا العقلَ السريعَ التّخلْخُل.. ولدَيْكَ كذلكَ... »

وتوقّفَتْ لحظةً، ثم أكملتْ وهي تستديرُ لتقطُفَ وردةً:

« ... ذكرى مَلاكك الحارس.. إن كان هذا يمكنُ أن يكون له بعضُ التأثير! »

– « آه، يا آنسة نيقل! ليتني أستطيعُ أن أؤمنَ بأنك تهتمين... »

قالت الآنسة نيقل وقد بدا عليها التأثر:

« عندما كنتُ طفلةً أَعْطَتْني أمي عِقداً كنتُ أتحرّق للتّزيُّن به. ولكنها قالت لي: « أذكري، كلّما لبستِه، أنكِ لم تُتقني بعدُ اللغةَ الفرنسية! » لقد فَقَدَ العقدُ جاذبيته، ولكنه أصبح أشبهَ بتوبيخ الضمير؛ ولبسْتُهُ وتعلّمتُ اللّغةَ الفرنسية!... أترى إلى هذا الخاتمِ الذي صِيغَ على الطراز المصري القديم؟ لقد عُثِرَ عليه في أحد الأهرامات، والرموزُ التي عليه تعني أنّ « الحياة نضال ».. خُذْ.. إنني أهديكَ إياه؛ حتى إذا ما مرّت برأسِكَ فكرةٌ سوداء من الأفكار الكورسيكية، فانظُر إلى طِلّسْمي هذا وقُلْ لنفسك: « إن علينا أن نخرُجَ منتصرين من المعركةِ التي تفرضُها علينا الأهواءُ الخبيثة! »

– « لسوف أفكّر فيـكِ، يا آنسة نيقل، وأقولُ لنفسي... »

– « قل لها إنّ لك صديقةً يؤلمها جداً أن يُصيبَك مكروه! »

٨. هدية غريبة

كان من المقرَّر أن يسافرَ أورسو وكولومبا في ساعة مبكرة من اليوم التالي. وقد ودَّعَ أورسو الآنسةَ ليديا في المساء، لأنه لم يكن يؤمنُ أنها ستغيِّرُ عادتَها من أجله فتصحو مُبكِّرة. لهذا كان دَهَشُهُ عظيماً في الصباح عندما رآها تدخلُ عليه ووراءها أختُهُ، بينما كان يتناولُ الفَطورَ مع العقيد. لقد نهضَتْ في الساعة الخامسةِ من الصباح؛ وهذا المجهودُ كبيرٌ جداً بالنسة إلى إنكليزية، وخاصة إلى الآنسة ليديا! قال لها:

« إنني لشديدُ الأسف لأنكِ أزعجتِ نفسَكِ بهذا النهوض المبكّر!.. لا شكّ أن أختي هي التي أيقظَتْكِ، رغم تَوْصيتي لها.. وما أحسبُ إلاّ أنك تَصُبِّينَ الآن علينا في سِرِّكِ اللّعَنات!.. ولعلّكِ تتمنّيْنَ أن ترَيْني مشنوقاً! »

أجابت بصوتٍ منخفض، وباللغة الايطالية كيلا يفهمَ والدها:

«كلا! ولكنّكَ أبديتَ لي أمس استياءك بسبب مزاحي البريء.. ولم أشأ أن أتركَك تغادرُ هذا المكانَ وأنت تحملُ ذكرى غيرَ طيّبة.. والآن استودِعُك اللهَ، ورجائي أن نلتقي قريباً!»

وانتحَتْ كولومبا بأخِيها ناحيةً، وكلّمَتْهُ بصوتٍ خافت وهي تُخرجُ شيئاً من تحت خِمارها.

قال أورسو للآنسة نيڤل:

«إن أختي تريدُ أن تقدِّمَ إليكِ هديةً عجيبة، يا آنسة!.. إننا، نحن الكورسيكيين، لا نملكُ شيئاً ذا أهمية نستطيع أن نَهَبَهُ.. فيما خلا عواطفنا، التي لا يمحوها الزمن!.. تقول أختي إنكِ نظرتِ باهتمام إلى الخَنْجر.. إنه أثرٌ قديمٌ للعائلة..وكولومبا تعتبره ثميناً إلى حدّ أنها لم تشأ أن تتصرَّفَ به قبل أن تطلُبَ الإذنَ مني.. ولست أدري أأسمحُ لها أم لا.. فإنني أخشَى أن تهزأي بنا.»

قالت ليديا:

«إن هذا الخَنْجَر رائعٌ حقاً، ولكنّه سلاحٌ من أسلحة العائلة، فلا يسعني قبوله!»

فصاحت كولومبا:

«إنه ليس خَنجرَ والدي! ولكنه هديةٌ من الملكِ

تيودور إلى أحد أجداد والدتي! وإنَّ الآنسةَ لتُسْعِدُنا جداً بقبوله!»

وقال أورسو:

«أترَيْنَ. يا آنسة؟!.. لا تحتقري خنجرَ مَلِك!»

ومدَّتْ ليديا يَدَها بتردُّدٍ وهي تبتسمُ لكولومبا بمودّةٍ عميقة؛ وقالت:

«ولكنْ لا أجرُؤ. يا عزيزتي. على أن أدعَكِ عزلاء هكذا!..

قالت كولومبا بٱعتزاز:

«هذا أخي بجانبي.. ومعَنا البندقيةُ العظيمةُ التي وَهَبَنا والدُكِ إياها!.. هل حَشَوْتَها رصاصاً. يا أخي؟»

واحتفظَتْ ليديا بالخَنْجر؛ ولكنَّ كولومبا طلبَتْ ثمَنَهُ فَلْساً، وذلك لتُجنِّبَها الشَّرَّ الذي يَلْحَقُ بكلِّ من يُوهَبُ دون مقابل. أسلحةً قاطعةً أو خارقة!»

وجاءت لحظةُ الوَداع فقبَّلتْ كولومبا ليديا وقدَّمتْ شفتيْها القِرمِزيَّتَيْن للعقيد الانكليزيّ الذي أُعْجِبَ أيّما إعجابٍ بأدب الكورسيكيين.

ووقفتْ ليديا في النافذة تنظرُ إلى الأخوَيْن وهما يمتطيان فرسَيْهما ويسيران.. وراحتْ تتأملُ:

« ماذا يطوفُ في رأس هذا الشابِّ نحوي؟ وما هو موقفي منه؟.. لمَ أفكِّرُ فيه؟.. إنهُ مجرَّدُ رفيق السفر!.. ماذا جئت أصنع في كورسيكا؟.. أوه! إنني لا أحبُّه! إطلاقاً!.. كلا، كلا!.. على أيِّ حال هذا مستحيل!.. وكولومبا؟ يا لَلسُّخْرية!.. أأكون زوجة رَجُلٍ هو أخٌ لندّابة تحمل خنجراً؟!»

وظلّتْ مُؤَرَّقَةَ الأجفان طويلاً تلك الليلة.. وكرَّرَتْ أكثرَ من مئةِ مرَّةٍ أن السيد ديلاريبيا ما كان ولن يكونَ شيئاً مذكوراً في حياتها!

٩. حدود الأسرتين

سار الأخَوانِ طولَ النهار. وكانت كولومبا تبدي إعجابَها بليديا. وتقولُ إنها عروسٌ ممتازة.. وتسألُ عن ثروة والدها وعما إذا كان له أبناء آخرون.

وفي المساء نزلا في قرية صغيرة، عند صديقٍ من أصدقاء الأسْرة. وتلقّاهما الرجل، الذي كان عَرّاباً لوالدتها، بالكرَم الكورسيكيِّ العجيب. وفي اليوم التالي رافقَهما مسافةً غيرَ قصيرة؛ وقال لأورسو عند الوداع:

« أترى إلى هذه الغابات والأدغال؟!.. في وُسْعِ مَن يرتكبُ شيئاً أن يختفيَ فيها عشْرَ سنينَ دون أن تصلَ إليه

يَدُ الدَّرَك أو القنّاصة.. وإذا كان للمرء أصدقاء في بوكونيانو وما جاورها فإنه لا يهتم بشيء! إن بندقيَّتَكَ ممتازة، ولا بُدَّ أنها ترمي بعيداً!.. بٱسْم العذراء! يا لَهُ من عيار عجيب!...»

وودَّعاه واستأنفا رحلتهما. ولما أصبحا على مسافةٍ قصيرة من بيترانرا، أبصرا عند مدخل ممرٍّ ضيق بين مرتفعَيْنِ، جماعةً من الرجال المسلّحين بالبنادق، تبلُغُ نحوَ سبعةِ أو ثمانية أنفار. فأخرجت كولومبا مِنظاراً مكبِّراً من جيبٍ جلديٍّ كبير يحمله الكورسيكيون عادةً أثناء السَّفر؛ وراحت تنظرُ إلى هؤلاء الرجال، ثم هتفت فرِحةً:

« إنهم رجالُنا! لقد قام بيروتشيو بُمهمَّتِهِ خيرَ قيام!»

فسألها أورسو:

« أيُّ رجال؟

– رُعاتُنا!.. لقد أَرْسَلْتُ بيروتشيو، أوَّلَ أمس، لجَمْعِ هؤلاء الناسِ الطّيبين ليرافقوك إلى المنزل.. إنه لا يليقُ بك أن تدخُلَ بيترانرا دون حاشية!.. ثم إن آل باريتشيني لا يتورَّعونَ عن شيء!»

فأجابها أورسو بلهجة قاسية:

« كولومبا! لقد رَجَوْتُكِ مراراً وتكراراً ألا تعودي إلى

ذكر آل باريتشيني. ولا إلى ترديد هذه الشكوك التي لا أساس لها! إنني لن أعرِّض نفسي للسُّخرية بالدخول إلى قريتي. بعدَ هذا الغيابِ الطويل. مَصْحوباً بهذه المجموعة من التنابلة! إنني مستاءٌ جداً لأنكِ عَمِلْتِ على جَمْعهم دون الرجوعِ إليّ!»

– «لقد نسِيتَ بلادَك. يا أخي!.. إن من واجبي أن أحرُسك عندما يعرِّضُك عدمُ الحذَرِ للمخاطر!.. لقد فعلتُ ما كان عليَّ أن أفعل!»

في هذه اللحظة رآهما الرُّعاة. فجرَوْا إلى خيولهم فركِبُوها وراحُوا يهْبطون المُنْحدر عدْواً للقائهما. وصاح شيخٌ قويّ البِنْية، أبيضُ اللحية. عليه. برغم الحرّ الشديد. عباءةٌ ثقيلةٌ من الصوف الكورسيكي لها طرطورٌ يغطّي رأسَه وكثافتُها تفوق كثافةَ الوبَرِ الذي يكسو ماعزَه:

«أقيڤا (عاش) أورس أنتون!.. إنه صورةُ والده.. ولكنه أطولُ وأقوى!.. ما أجملَ هذه البُندقية!.. سوف يتحدَّث الناسُ عنها. يا أورس أنتون!»

وردَّدَ الرُّعيانُ وراءهُ بصوت واحد:

«أقيڤا أورس أنتون! لقد كنا واثقينَ أنَّه سيعودُ في النهاية!»

وقال شاب طويلُ القامة، صُلْبُ العُود، له لونٌ كلون الآجُرّ: «آه، يا أورس أنتون! لكَم كان والدك سيفرحُ لو أنه كان هنا في استقبالك! ما كان أعزَّهُ علينا! لو سمعَ كلامي وتركني أُنْهِي أمرَ جيودتشي لكان أمامَك الآن! يا لهُ من رجلٍ طيِّب! لم يصدِّقْني!.. لا بدَّ أنه يعلمُ الآنَ أنني كنتُ على حقّ!»

وأضاف الشيخ قائلاً:

«لن يضيعَ شيءٌ على جيودتشي في هذا الانتظار!»

وعاد الجميعُ يهتفون: «أقيڤا. أورس أنتون!» وانطلقتِ البنادق مع الهُتاف!

أما أورسو فقد ظلَّ واقفاً وَسَطَ هذه المجموعة من الفُرسان الذين يتكلَّمونَ كلُّهم في وقتٍ واحد ويتدافعون ليصِلُوا إليه ويصافحُوه. ظلَّ واقفاً وهو معتكرُ المزاج، ضيّقُ الصَّدْرِ بهؤلاء الناس الذين لم يستطعْ أن يوصِلَ صوتَهُ إلى آذانهم. واتَّخذَ آخر الأمر الموقف الصارم الذي كان يقفُهُ على رأس القُوّةِ العسكرية التابعة له وقال:

«أشكرُكم، أيها الأصدقاء، على ما أبدَيْتُم لي من المَوَدَّة، كما أشكرُكُمْ على ما كنتم تحملونَ منها لوالدي! ولكنني أريدُ أن يمتنعَ كلٌّ منكم عن إسداء النُّصح لي، فأنا أعرفُ

ما يجبُ عليَّ أن أفعل!»

وتصايح الرعاة:

«إنه على حق! إنه على حق!»

وقالوا:

«تستطيعُ أن تعتمدَ علينا، يا أورس أنتون!»

– «أجل! إني أعتمدُ عليكم.. ولكنني لا أحتاجُ الآنَ إلى أيٍّ منكم! وليس هناك ايُّ خطرٍ يُهَدِّدُ بيتي!.. هيَّا عُودوا إلى قُطْعانكم!.. إنني أعرفُ طريقَ بيترانرا ولا حاجةَ بي إلى أدلاّء!»

وابتعَدَ الرُّعاة، آخرَ الأمر، منطلقينَ نحوَ القرية؛ إلا أنهم كانوا يتوقّفون، من حينٍ إلى آخر، ليتأكّدوا من عدَمِ وجودِ أيِّ كمين.»

وهكذا دخلَ سليلُ آل ديلاريبيا إلى قريتِهِ وراء هذه الفرقة من الكشّافة، وتوجّهَ إلى ذلك القصر القديم، مَقَرِّ أجدادِهِ «الكاپورو». وتجمّعَ آل ديلاريبيا وأنصارُهم لاستقباله، وهم فرحون، بعد أن لبثوا طويلاً دون زعيم. أما السُّكان، الذين يلتزمون الحياد بين الأسْرَتَيْن المتعاديتَيْن، فقد وَقَفُوا في أبواب منازلهم ليَرَوْا أورسو اثناءَ مرورِهِ. وأمّا آل باريتشيني ومَنْ والاهُمْ من أهل

القريةِ فقد ظَلُّوا في بيوتهم ينظرون من شُقوق النوافذ.

ليست بيترانرا منظّمةً في بنائها، شأنُها في ذلك شأن جميع القرى الكورسيكية. فبيوتُها تنتشر هنا وهناك كيفما اتفق. وهي تحتلُّ قِمّةَ مُرْتَفَعٍ من المرتفَعات، أو، على الأصحّ، مُسَطَّحاً في أعلى الجبل. وعلى مقربة من مركز القرية ترتفعُ سِنديانةٌ باسقة، وبجانبها حَوْضٌ من الصّوّان، تنتهي إليه قناةٌ خشبيةٌ تأتيه بالماء من ينبوعٍ قريب. وقد أقيم هذا الحَوْض، الذي يؤدي خدمةً عامة، بفضل الجهودِ المشتركةِ لعائلتي ديلاريبيا وباريتشيني. ويخطىء غايةَ الخطأ مَنْ يرى في هذه المشاركةِ أيَّ علامة من علامات الوئام القديم بين الأُسرتين؛ بل إنها، على العكس من ذلك، نتيجةٌ للتنافس بينهما. ففي ذاتِ يوم أرسلَ العقيدُ ديلاريبيا مبلغاً من المال إلى مجلس البلديةِ في المنطقة للإسهام في إنشاء حوضٍ يستقي منه أهلُ القرية؛ فما كان من المحامي باريتشيني إلا أنْ أرسلَ هِبَةً مالية مماثلةً لهذا الغرض بالذات.

وحول السنديانة والحَوْض توجدُ مساحةٌ خالية من الأرض، يَدْعُونها ساحةَ القرية. ويتجمّعُ فيها المُتَبطِّلون في الأماسيّ، وفيها يَلْعَبون بالورق أحياناً، ويرقصُونَ، مرّةً كلَّ عام، في عيد الكرنڤال.

على طَرَفَيْ هذه الساحة المتقابلَيْن يقومُ بناءانِ من الصَّوَّان: إنهما بُرجا العائلتين ديلاربيبا وباريتشيني. وهما مبنيَّانِ على نفس الطِّراز، ولهما نفسُ الارتفاع، مما يدُلُّ على أن المنافسةَ بين الأسرتين لم تنقطعْ في يومٍ من الأيام. ولم يَخْتَلَّ لها ميزان.

ولعلّهُ من المفيدِ أن نفسِّر هنا كلمة « برج »: فهو عبارة عن بناءٍ مُربَّعٍ يرتفعُ نحواً من أربعينَ قدماً.. ولا ريب أنهم، في البلاد الأخرى، يدْعونَهُ، بكلِّ بساطة « بُرْجَ حمام »! أما الباب الضيّقُ لهذا البناء فإنه يوجدُ على ارتفاعِ ثمانية أقدام. ويُرْقى إليه بسُلَّمٍ حجَريٍّ شبهِ قائم. وتَعْلو هذا البابَ نافذةٌ أمامها شُرْفَةٌ صغيرة – أو ما يُشبه الشُّرفةَ – في أسفلها فتحةٌ تتيحُ لشخصٍ واقفٍ في النافذة أن يَصْرَعَ زائراً مُعادياً، دونَ أن يتعرَّضَ لرصاصِ ذلك الزائرِ الغريب.

وبين البابِ والنافذةِ يُرى تُرْسانِ قد نُقشا بطريقةٍ بعيدةٍ عن الاتقان. أما الأوَّلُ فكان يحملُ في الماضي صليبَ جَنَوه، وقد تحطّمَ، حتى لم يَعُدْ يستطيعُ تفسيرَهُ سوى خبيرٍ في الآثار. وأما الثاني فقد نُقِشَتْ عليه شعاراتُ العائلة التي تملكُ البرج.

أضِفْ إلى هذا الوَصْفِ بعضَ آثارِ الرَّصاص على التُّرسَيْن وعلى إطار النافذة. لكي تكونَ لديكَ صورةٌ كاملةٌ لهذا المكان، وتتخيل مقراً لإقطاعيٍّ كورسيكيٍّ من القرون الوسطى. وقد فاتني أن أقول إن دارَ السَّكن تتَّصلُ بالبرج، وغالباً ما يَرْبطُ بينهما ممرٌّ داخلي.

كان برجُ ديلاربيبا يحتل الجهةَ الشمالية من الساحة، أما برجُ باريتشيني فيحتلُّ الجهة الجنوبية؛ ومن بُرج ديلاربيبا حتى حوضِ الماء مُتنَزَّهُ آل ديلاربيبا، ومن الحوضِ حتى البُرْجِ المقابِل مُتنَزَّهُ آل باريتشيني. ومنذُ أن دُفِنَت زوجةُ العقيـد ديلاربيبا لم يتَخطَّ أحدٌ من العائلتين حدود المساحة المخصَّصةِ لكلٍّ منهما بما يُشْبِهُ الاتفاقَ الضمنيَّ. ولكي يتفادى أورسو الدَّورانَ وإطالةَ الطريق، كان على وَشْكِ أن يقطعَ الساحة مارّاً بجانب بيت العُمدة؛ ولكنَّ أُخْتَهُ نبَّهَتْهُ، وطلبَتْ إليه أن يَسْلُكا زُقاقاً ضيِّقاً يُوصِلُهما إلى البيت؛ فقال لها:

« ولِمَ هذا الإزعاج؟ أليستِ الساحةُ لجميع السكان؟ »

ودفَعَ جوادَهُ نحو المَيْدان. وقالت كولومبا بصوتٍ منخفض:

« يا لَقَلْبِكَ الجريء!.. إطمئنَّ، يا أبتي، فلا بُدَّ أن يثأر لك! »

وسارَتْ كولومبا بجانب أخيها من جهةِ بيتِ العُمْدة، وهي لا تفتأ تراقبُ النوافذَ من طَرفٍ خفيّ. وقد لاحظتْ أنها قد أقيمَتْ عليْهَا المتاريسُ منذ أمدٍ قصير.. ولا يَتِمُّ مثل هذا التحصين إلا في الحالاتِ التي يُتَوَقَّعُ فيها هجومٌ على المنزل.

قالت كولومبا:

« يا لهم من جُبَناء!.. أنظرْ، يا أخي.. لقد تحصَّنوا.. ولكنْ لا بُدَّ لهم أن يَخرجوا ذاتَ يوم! »

وقد أحدَثَ مرورُ أورسو في الجهةِ الجنوبية تأثيراً هائلاً في القرية، وَعدَّهُ الناسُ دليلاً على جرأةٍ تبلُغُ حدَّ التّهوُّر. وقد اتّخَذَهُ المحايدونَ موضوعاً للتعليقات، عندما جلسوا مساءً حولَ السِّنديانة.

١٠ . قوة الرأي العام

انفصلَ أورسو عن والدِهِ، وهو في سِنّ الخامسةَ عَشْرَةَ. فلم يَتَسنَّ لَهُ أن يعرفَهُ تمامَ المعرفة. إلا أنه في عام ١٨١٥ وُجِدَ في نفسِ الفِرقة التي يقودُها والدُه. ولكنَّ العقيدَ الذي كان صُلْباً لا يلينُ فيما يختصُّ بالنظام، كان يعاملُ ابنَهُ كجميع الضُّبّاط الشُّبّانِ الآخرينَ سواء بسواء، أي بمنتهى الصَّرامة.

وكانتِ الذكرياتُ التي يحملُها أورسو عن هذا الأب على نوعَيْن. فهُوَ يَذْكُرُهُ قبلَ أن يبرَحَ بيترانرا.. يَذْكُرُ كيف كان يُعْطيهِ سَيْفَهُ ليتقلّدَهُ. وكيفَ كان يترُكُ له البندقيَّةَ لدى عودتِهِ من الصَّيد، ليُخرِجَ منها الرَّصاص.. كما يَذْكُرُ المرَّةَ الأولى التي أجلَسَهُ فيها مع العائلةِ وهو ما يزالُ طفلاً صغيراً.

كذلك هو يَذْكُرُ العقيدَ ديلاريبيا الذي كان يُرْسِلُهُ إلى الحبس لأتفهِ الأسباب. ولا يَدْعُوهُ، إن دعاهُ، إلاّ بالملازم ديلاريبيا... مرةً واحدةً فقط قالَ لهُ في إحدى المعارك:

« أحسَنْتَ، يا أورسو! ولكنْ كُنْ حَذِراً! »

على كلِّ حال لم تكُنْ هذه الذّكرياتُ هي كلَّ ما أوحت به اليه بيترانرا فإنَّ مرأى الأماكنِ المألوفةِ لطفولتِهِ والأثاث الذي يحملُ لمَسَاتِ أمِّهِ التي أحبَّها حباً ملؤُهُ التّفاني والحنان، قد أيقظَ في نفسِهِ طائفةً من المشاعر العَذْبَة والمُؤْلمة في آنٍ واحد.

بعد العشاء لبثَ أورسو وَقْتاً طويلاً وهُوَ جامدٌ لا يتحرّك. وقد أسندَ رأسَهُ إلى كفِّهِ وراحَ يستعيدُ في مخيّلَتِهِ صُوَرَ الأيّامِ الخمسةَ عشْرَ الأخيرة. وكان يتمثّلُ بكثيرٍ من الرّهبة ذلك الانتظارَ الذي يراهُ في تصرُّف كلِّ

شخص معه، انتظارَ ما سيكون من أمره مع آل باريتشيني. وقد أحسَّ منذ أن وطِئت قدماهُ أرضَ بيترانرا، أنَّ الرأيَ العامَّ في هذه القرية قد بدأ يتبدّى له وكأنَّهُ الرأيُ العامُّ في العالم برُمَّتِه. كان عليه أن يأخذَ بالثأر، وإلا فإنَّ هذا الرأيَ العامَّ سيعتبرُهُ جباناً رِعْديداً.

ولكنْ.. مِمَّنْ سيأخُذُ ثأرَهُ؟ إنَّهُ لم يكُنْ يستطيعُ أن يُقْنِعُ نفسه بأنَّ آل باريتشيني هم الذينَ ارتكبوا تلك الجريمة. صحيحٌ أنهم كانوا أعداء عائلته، بيْدَ أنَّهُ من غيرِ الممكن أن يَنْسِبَ إليهم القتلَ إلا على أساس الافكارِ السخيفةِ التي تَعْمُرُ رؤوسَ مواطنيه.

وكان على وشكِ الصُعُودِ إلى حُجْرةِ النومِ عندما سمعَ قَرْعاً على الباب. وفي نفس الوقت ظهرَتْ كولومبا ووراءَها المرأةُ التي تقومُ على خدمتها. قالت وهي تُسْرِعُ إلى الباب:

« لا تَهْتَمَّ بهذا الأمر! »

ومعَ ذلك سألتْ، قبلَ أن تفتحَ الباب، عن ذلك الطارق، فأجابها صوتٌ لطيف: « أنا! »

وفي الحال رَفعت الخشبةَ المتينةَ التي كانت مُثْبتةً وراء الباب في العرض. وعادت كولومبا إلى حجرة الطعام تتبعُها صبيَّةٌ تناهزُ العاشرة، حافيةُ القدمين، رثّةُ الثياب.

قد لَفَّتْ رأسَها بمنديل قذِرٍ تتدلى عن جوانبه خُصَلٌ طويلةٌ من الشَّعر الفاحم كجناحِ الغراب.

لما رأت الطفلةُ أورسو توقّفت خجلةً وحيَّتْهُ بانحناءة على الطريقة القَرَوية. ثم راحت تتحدَّث إلى كولومبا بصوتٍ منخفض، وقدّمت إليها ديكاً برّياً اصطيدَ حديثاً.

قالت كولومبا:

« شكرَاً لكِ، يا شيلي! اشكري عمكِ عني!.. كيف هو؟ لعلّه بخير! »

– « إنه في صحة جيدة، يا آنسة، وهو في خدمتكِ! »

– « سأهيىء لكِ العشاء.. هل لدى عمّك ما يكفي من الخبز؟ »

– « قليل!.. ولكنه يحتاج، قبل كل شيء، إلى بارود! »

– « سأعطيك قطعةَ خبز وشيئاً من البارود.. قولي له أن يقتصدَ في استخدامه، لأنه غالٍ في هذه الأيام! »

قال لها أورسو باللغة الفرنسية:

« كولومبا! إلى من تقدّمين هذه الصّدقة؟ »

– « إلى لصٍّ فقير من هذه القرية؛ وهذه الصبيّةُ هي ابنةُ أخيه. »

- «يبدو لي أنَّ في وُسْعِكِ أن تُوَجِّهي إحسانكِ بصورة أفضَلَ من هذه! لمَ إرسالُ البارود إلى عابثٍ يستعين به على اقتراف الجرائم؟! لولا هذا الضّعفُ المخزي، الذي يلوح أن الجميع هنا يتميَّزون به تجاهَ اللصوص، لاختفتِ هذه الفئة من كورسيكا منذ زمنٍ طويل!»

- «ليس أولئك الذين يلجأون إلى البراري[1] هم أردأ الناس في بلادنا!»

- «أعطِيهِمْ خبزاً، إذا شئتِ، فالخبزُ لا يجبُ أن يُمنَعَ عن أحد!.. ولكنني لا أرى أن يُزَوَّدوا بالذخيرة!»

قالت كولومبا بلهجةٍ حازمةٍ رصينة:

«إنك أنتَ السّيدُ هنا، يا أخي! وكلُّ ما في هذا المنزل مِلْكٌ لك!.. ولكنني أُعلنُ أمامكَ أنه لأَهْوَنُ عليَّ أن أعطي هذه الصبيَّةَ خِماري لتبيعَهُ من أن أرفضَ إعطاء البارودِ إلى أحدِ اللصوص!.. إن منع البارودِ عنهُ لا يختلفُ في شيء عن تسليمهِ إلى الدَّرَك! هل في يده ما يَحْميه منهُمْ غيرُ ذخيرته؟»

(١) لجأ إلى البراري، أي أصبح لصاً. وكلمة لص لا ترتدي هنا الطابع البغيض المعروف، إنها بمعنى: المبعد أو الخارج على القانون، الذي تذكره الاغاني الانكليزية. (المترجم)

- «وماذا فعلَ لِصُّكِ هذا؟ لأيِّ جريمةٍ رَمَى نفسه في الماكي[2]؟»

- «إنَّ براندو لاتشيو لم يَصْنَعْ شيئاً!.. كلُّ ما فعلَهُ هو أنّهُ قتَلَ جيوڤان أوپيزو، الذي كان قد اغتال والدَه، بينما كان هُوَ في الجيش!»

فأدار أورسو رأسَهُ وحَمَلَ المصباحَ، وصعَدَ إلى حُجرتِهِ، دون أن يُجيبَ بكلمة واحدة.

١١. قميص القتيل

أرِقَ أورسو طويلاً قبل أن يتمكّنَ من النوم، لهذا نهضَ في اليوم التالي متأخراً.. بالنسبة إلى الكورسيكيين على الأقلّ. وأوّلُ شيء صَدَمَ بصَرَهُ منزلُ أعدائهِ والاستحكاماتُ التي أقاموها. ولما هبطَ إلى الدار وسألَ عن أخته أجابَتْهُ الخادمةُ ساڤيرنا قائلة:

«إنها في المطبخ تَصُبُّ الرصاص!»

وهكذا لم يكن في وُسْعِهِ أن يَخْطُوَ خُطْوَةً حتى تطالعَهُ

(٢) الماكي: دغل أو غابة يختبىء فيه الهاربون، ولا بأس من استعمال هذه الكلمة. (المترجم)

صورةٌ من صُوَر الحرب.

وجدَ أختَهُ جالسةً على كرسيٍّ خشبيٍّ صغير. وحولَها مجموعةٌ من الرصاص المصبوب حديثاً. وقد أخذَتْ تَقْطعُ المَعْدِنَ المُذابَ لتحوِّلَهُ إلى رَصاصاتٍ صغيرة. قال لها:

«يا لَلشّيطان! ماذا تَصْنعين؟!»

أجابت بصوتٍ عذب:

«لم يكنْ لَدَيْكَ رَصاصٌ لبندقية الكولونيل! وقد عثرتُ على قالبٍ من نفس العيار.. لسوف أزوِّدُك اليوم بأربعٍ وعشرين رَصاصة!

– «لست في حاجةٍ إليها. ولله الحمد!»

– «يجبُ ألا تُؤخَذَ على غِرّة. يا أورسو أنتون!.. يبدو أنك نسِيتَ بلادَكَ. ونسِيتَ الناسَ الذين يعيشونَ حولك!»

– «وحتى لو نسِيت ذلك. فما أسرعَ ما تذكّرينني به!»

وقالت كولومبا:

«أخي! إن ملابسَك أجملُ من أن تُلْبَسَ في هذه البلاد! فهذا الرّدِنغوت الذي ترتديه سيُصبحُ مِزاقاً. في مدى يومَيْن اثنين. إن أنت لبِسْتَهُ في الماكي.. يجب أن

تخبّئَهُ إلى اليوم الذي تأتي فيه الآنسة نيقل!»

ثم قامت إلى خِزانة الملابس وأخرجَتْ منها ثوباً كاملاً للصيد. وقالت:

«لقد صنعتُ لك سترةً من المُخْمل!.. وها هيَ ذي قَلَنْسُوَةٌ، كتلك التي يعتمرُها أربابُ الأناقة في بلادنا!.. لقد طرّزْتُها لك منذُ وقتٍ طويل.. تعالَ جرِّبْ هذه الملابس!»

ومرّتْ بضعةُ أيام لم تأتِ فيها كولومبا على ذكر آل باريتشيني. كانت لا تزالُ ملتفتةً إلى العناية بأخيها. وكانت كثيراً ما تتحدَّث إليه عن الآنسة نيقل. وكان أورسو يقدّمُ إليها بعضَ الكتبِ الفرنسية أو الايطالية لتقرأ أمامَهُ. فكان أحياناً يُدْهَشُ من صِحَّةِ ملاحظاتها وما تنطوي عليه هذه الملاحظات من تفكيرٍ سليم؛ وأحياناً أخرى يُصْعَقُ من جهلها المُطْبق لأشياء معروفةٍ جداً بل مُبْتَذَلة.

وفي ذات صباحٍ، وبعد أن تناوَلَ الأخَوان طعام الفَطور، خرجَتْ كولومبا من حُجرة الطعام فترةً قصيرةً، وبدلاً من أن تعود وفي يدها كتاب، أقبلتْ وعلى رأسها خِمارُها وفي قَسَماتِ وجهها أماراتُ الجدّ. قالت له:

«أرجو أن ترافقَني. يا أخي!»

فسألها وهو يُقدّم إليها ذراعه:

« إلى أين تريدين أن أذهبَ معكِ؟ »

- « لستُ في حاجة إلى ذراعك، يا أخي!.. خُذْ بندقيّتَك ومِنْطَقَتَك.. على الرَّجُل أن لا يخرجَ دون سلاح! »

- « لكِ ما تريدين!.. علينا أن نَتْبَعَ المألوف!.. ولكن إلى أين نحن ذاهبان؟ »

فلم تُجب كولومبا، بل لفّت خمارَها ونادت كلبَ الحراسة، وسارت، وأخوها وراءها. وابتعدَتْ بخطىً سريعة عن القرية؛ ثم سلكتْ دَرْباً يتلوى بين كروم العنب، بعد أن أطلقَتِ الكلبَ أمامها، وأشارت إليه إشارةً يلوح أنه كان يفهمها؛ لأنه جرى في الحال في خطٍّ متكسِّرٍ بين الشُّجَيْرات، متجهاً تارةً في ناحية وتارةً في ناحية أخرى، وهو لا يبتعدُ عن سيدتِهِ أكثرَ من خمسينَ خطوةً. وكان أحياناً يتوقَّفُ وينظرُ إليها، وهو يهزُّ ذيلَهُ. وكان يبدو أنه يؤدي مُهِمَّتَهُ الاستكشافيةَ خيرَ أداء. قالت كولومبا:

« إذا نبح موشيتو خَرْطِشْ بندقيّتَك، يا أخي، وَقِفْ ساكناً! »

على بُعْدِ نصفِ ميلٍ من القرية، وبعد دَوَرانٍ كثيرٍ،

توقّفَتْ كولومبا فجأةً في مكان تنعطفُ فيه الطريق. كانت هناك كومةٌ من الأغصان التي يَبِسَ بعضُها وما زال البعضُ الآخر رَطْباً طريّاً؛ وقد تراكمَتْ حتى أصبحَتْ على ارتفاع نحوٍ من ثلاثة أقدام. ومن قمة هذا الهرم يخرجُ رأسُ صليبٍ خشبي صُبِغَ باللون الأسود.

في عِدَّةِ مقاطعاتٍ من كورسيكا، وخاصةً في الجبال، يَتَّبعونَ تقليداً قديماً لعلَّهُ من بقايا العقائد الوثنية؛ وهو يقضي بأن يَعْمَدَ كلُّ شخصٍ، يَمُرُّ أمامَ قبرِ إنسانٍ لاقَى حَتْفَهُ بشكل عنيف، إلى إلقاء حجرٍ أو غُصنٍ على القبر. وعلى مرِّ السنينَ تتراكمُ هذه القرابينُ العجيبة، ما دامت ذكرى المَيْتِ باقيةً في الأذهان. ويَدْعُونَ هذا الرُّكام « بالكومة »، فيقولون: كومة فلان!

وقفت كولومبا أمام تلك الكَومة من الأغصان، وانتزعت فرعاً قريباً من فروع « القَطْلب »، وأضافَتْهُ إلى الهرم، ثم قالت:

« أورسو! هنا مات والدُنا! لِنُصَلِّ على روحه، يا أخي! »

ثم ركعَتْ على رُكْبَتَيْها، وحذا أورسو حَذْوَها. وفي هذه اللحظة بدأ ناقوس القرية يَدُقُّ ببطء. لأنَّ رجلاً من

القريةِ قد تُوُفّيَ أثناء الليل، فانفجرَ أورسو بالبكاء.

بعد دقائقَ نهضت كولومبا وعيناها جافّتان، ولكنَّ في وجهها حياةً وأملاً. وبإبهامها رَسَمَتْ بسرعةٍ علامةَ الصليب، وهي حركةٌ مألوفةٌ عند الكورسيكيين يُؤَدُّونها عندما يَقْطَعُون على أنفسِهمُ العهود. ثم أخذت أخاها بذراعه وخَطَتْ في طريق القرية.

عادا إلى منزِلِهِا صامتَيْن؛ فصعَدَ أورسو إلى حجرته. وبعد لحظاتٍ تبعَتْه كولومبا، وهي تحملُ صندوقاً خشبياً صغيراً. وضعت الصندوقَ على المِنْضَدَةِ ثم فَتَحَتْهُ وأخرجَتْ منه قميصاً عليه بُقَعٌ كبيرة من الدم، قالت:

« هذا قميصُ والدِك. يا أورسو! »

ثم ألقَتْهُ في حُجْرِهِ، وأضافت قائلة:

« وهذا هو الرَّصاص الذي صرعه! »

ووضَعَتْ على المائدة رَصاصَتَين صدِئَتَيْن. وصاحت وهي ترتمي بين ذراعيْه وتضمُّه بقوة:

« أورسو! أورسو! يجب أن تثأرَ له:

وقبَّلَتْهُ بما يُشْبِهُ الثَّورة، ثم لَثَمَتِ الرَّصاصَ والقميصَ وغادرت الحجرة، وخلَّفَتْهُ في حالةٍ من الذهول، يبدو معَها كأنه تَحجَّرَ على كُرْسِيِّه. وظل وقتاً طويلاً على هذا الوضع.

لا يجرُؤ على تحريكِ رأسه. ثم نهض وأغلَقَ الصندوق وغادر المنزلَ في عجلة، وراح يَهيمُ بين الحقول. وهو لا يدري إلى أين يَقْصِد.

وشيئاً فشيئاً أراحَهُ الهواءُ الطّلْق. فعادَ إليه بعضُ الهدوء. وعلى مسافةٍ من القريةِ سَمِعَ بنتاً صغيرة تغنّي في دربٍ قريب من الماكي ظناً منها أنها وحيدةٌ لا يَسمعُها أحد. كان لحنُها هو ذلك اللحنَ البطيءَ الرتيبَ، الذي يُستخدَمُ في البكاء على الموتى.. وكانت تقول:

« إلى ولدي الغائب المبعد.
صليب البطولة. ثم القميص.
قميصي وفيه بقايا دمي! »

قال لها أورسو بصوت غاضب. وقد ظهرَ فجأةً أمامها:

« ماذا تُغَنِّين، أيتها الصغيرة؟ »

أجابت بشيء من الخوف:

« أهذا أنت، يا أورس أنتون؟.. إنها أغنيةٌ من أغاني الآنسة كولومبا! »

فصرخ بصوتٍ مُرْعِب:

« كُفّي عن غنائها! »

ولكنْ سُرعانَ ما شعر بالخجل لهذهِ القَسْوة. فحاولَ أن يُلاطفَها. قال:

« ماذا تحملين هنا. يا صغيرتي؟ »

ولما تَرَدَّدَتْ شيلينا في الجواب، أزاحَ طَرَفَ القُماش، فانكشف عن قطعةِ خبزٍ وبعض الزاد؛ فسألها:

« إلى مَن تحملين هذا الخبز. يا بنيتي؟

- « إنك تعرفُ هذا جيداً. يا سيدي!.. إلى عمي! »

- « وعمُّكِ هذا. أليس لصاً؟ »

- « إنه في خدمتكِ. يا أورس أنتون! »

وظهرَ كلبٌ في الطريق؛ فوضعتِ الصغيرةُ إصبعَيْن من أصابعها في فمها وأرسلتْ صفيراً عالياً. عندها أقبلَ الكلبُ يجري نحوها وأخذ يلاطفها. ثم تركها وانطلقَ نحو الماكي. واختفى فيه. ولم يَمْضِ على ذلك لحظاتٌ حتى ظهر فجأةً. من وراء كَرْمة كثيفة. وعلى بُعد خُطُوات من أورسو. رَجُلانِ رثّا الثيابِ ولكنهما كاملا التسلُّح. وقد انتصبا دون أن يَشْعُرَ بهما أحد. قال أكبرهما:

« أوه! أورس أنتون! مَرْحباً بك!.. إيه؟.. ألم تَعْرِفْني؟ »

أجاب أورسو وهو يُنعم فيه النظر:

« كلا! »

- « إنه لأمرٌ عجيبٌ أن تمنعكَ لحيةٌ وطرطورٌ من معرفة رجل لا تجهلُه؟! أنسيتَ الجنودَ القُدامى في معركة واترلو؟ ألم تَعُدْ تذكر براندو ساڤيلّي. الذي أطلَقَ إلى جانبكَ ما لا يُحْصَى من الرّصاص في ذلك اليوم المشؤوم؟

- « ماذا؟.. أهذا أنت؟.. لقد هربْتَ من الجيش عام ١٨١٦! »

- « هذا صحيحٌ. يا سيدي الملازم!.. إن الجندية مُضْجِرَة. في الحقيقة.. ثم إنَّهُ كان هناك حسابٌ عليَّ تصفيتُهُ في هذه البلاد!.. ها. ها! شيلي. أنت بنتٌ رائعة!.. هاتي أطعِمينا. فنحن جائعان!.. إنكَ لا تستطيعُ أن تتصوَّرَ. يا سيدي الملازم. كم يجوعُ المرء في الماكي!.. مَنْ أرسلَ لنا هذا؟.. الآنسة كولومبا أم العُمدة؟ »

- « كلا. يا عمي. بل صاحبةُ الطاحون! »

- « ماذا تريدُ مني؟ »

- « تقولُ إن الفلاحينَ الذين كلَّفْتَهُمْ باستصلاح أرضِها يطلبونَ منها الآنَ خمسةً وثلاثين فلساً فوق موسم

البَلُّوط، وذلك بسبب الحُمَّى التي ظَهَرَتْ في جنوب بيترانرا!»

– «يا لَهُمْ من كُسالى.. سأرى ذلكَ بنفسي!.. سيدي الضابط قاسمنا هذا العشاء، دونَ تكلُّف! لكم تناوَلْنا معاً أردأ منه في أيام مُواطننا المرحوم (يقصد والد أورسو) قبل أن يُخرجوهُ من الجيش!»

– «شكراً جزيلاً!.. وأنا أيضاً أُخْرِجْتُ من الجيش!»

– «سمعْتُ بهذا.. وأراهنُ أنكَ غيرُ غاضب.. إنها مسألةُ حسابك!»

والتفت اللِّصُّ إلى زميلِهِ وقال:

«هيّا، أيُّها الكاهن، إلى المائدة!.. سيّد أورسو أُقَدِّمُ لك سيادةَ الكاهن.. الحقيقةُ أنني لا أدري إن كان كاهناً بالفعل، ولكنَّ لهُ عِلمَ الرُّهبان!»

وقال اللصُّ الثاني:

«إنني طالبُ لاهوتٍ مسكينٌ مُنعَ من مُواصلة السَّير مع مَيْلِهِ الطبيعي!.. مَنْ يدري.. أما كان من الممكن، يا براندو لاتشيو، أن أصبحَ بابا في يوم من الأيام؟!»

فسأله أورسو:

«وما هو السببُ الذي حرم الكنيسةَ من معارفك؟»

– «سببٌ تافه!.. تصفيةُ حساب، كما يقول صديقي براندو لاتشيو!»

وكان هذا في أثناء ذلك، يصنعُ الخبزَ واللحمَ أمامَ رفيقِهِ؛ ثم يأخذُ نصيبَهُ، ويقدِّمُ إلى الكلبِ حِصَّتَهُ. وأخيراً يعطي ابنة أخيه قطعةَ خبزٍ مع شريحةٍ من لحم الخنزير النَّيْء.

وقال براندو لاتشيو:

«بما أنَّكَ لم تشأ، يا أورس أنتون، أن تأكُلَ معنا، فإني أرى ألاّ تَدعَ الآنسةَ كولومبا تنتظرُكَ طويلاً!.. ثم إنه ليس من المستحسن دائماً أن يسيرَ المرءُ في الدروب بعدَ غيابِ الشمس!.. ولماذا تخرُجُ دون بندقية؟.. إن في هذه النواحي بعضَ الناسِ الأنذال.. خُذْ حِذْرَكَ منهم!.. لا تَخْشَ شيئاً هذا اليوم، فإن آل باريتشيني قد دَعَوْا الحاكمَ إلى منزلهم.. سيقضي هذه الليلة عندهم!.. ولكنهم سيكونونَ أحراراً في الغد!.. هناك فنسنتيلّو، وهو مصيبةٌ من المصائب.. ثم اورلندتشيو الذي لا يَقِلُّ بَغْياً عنه!.. حاولْ أن تلقي كلاً منهما على حِدَة!.. ولكنْ كُنْ يَقِظاً!.. لا أقولُ لك أكثرَ من هذا!»

١٢ . التحدي

وَجَدَ أورسو أختَهُ في حالةٍ يُرْثَى لها من القلق، لغيابِهِ الطويل. ولكنها عندما رأَتْهُ استعادَتْ ذلك التعبيرَ من الهدوء الحزينِ الذي أَلِفَهُ وجهها. ولم يتحدَّثا أثناء العشاء إلا في أشياءَ مُبْتَذَلَةٍ لا تَمُتُّ بِصِلةٍ إلى وضعهما. غيرَ أن هدوءَ كولومبا شجَّعَ أورسو فروَى لها لقاءه مع اللِّصَّيْن. بَلْ أطلَقَ بعضَ النكاتِ حولَ التربيةِ الخُلقيّة والدينية التي تتلقّاها الصغيرةُ شيلينا على يدِ عمِّها وزميلِهِ المحترم السيد كاستريكوني.

قالت كولومبا:

« إن براندولاتشيو رجلٌ شريف، أما كستريكوني فقد سمعتُ أنه إنسانٌ لا مبادىء له. »

بعدَ الطعام قالت كولومبا وهي تَصُبُّ القهوةَ لأورسو:

«لعلّك تعرفُ، يا أخي، أن شارل باتيست بيتري قد تُوُفِّيَ الليلةَ الماضية؟!.. أجل.. تُوُفِّيَ بحُمَّى المُستنقعات!»

– «ومن يكون بيتري؟»

– «إنَّهُ رجلٌ من أهل هذهِ القرية!.. هو زوجُ مادلين التي أخذَتِ المفكِّرةَ من والدنا. بينما كانَ يَجُودُ بأنفاسِهِ

الأخيرة.. لقد جاءت زوجتُهُ ترجو مني أن أذهَبَ إلى دارِها أثناءَ السَّهر على جثمان فقيدِها، وأن أُنْشِدَ شيئاً.. وأرى أنَّ منَ اللائقِ أن تَذْهَبَ أنت أيضاً!

– «لِتَحْمِلِ الشياطينُ سَهْرَتَكَ هذه!.. كولومبا! أنا لا أُحِبُّ ابداً أن تظهرَ أختِي هكذا في المحافِلِ العامة لتكون غَرَضاً للأنظار!»

وبعد أخْذٍ وردٍّ، أذعن أورسو لأختِهِ، ورافقها إلى منزل بيتري.

كان المُتوفّى مُسجىً على مِنْضَدَةٍ وُضِعَتْ في أكبرِ حُجرةٍ من البيت، وحَوْلَها بعضُ الشموع. وقد وَقَفَتْ عند رأسِهِ أرملتُهُ ووراءَها عددٌ كبيرٌ من النِّسْوة. أما في الجانب الآخَرِ فقد وقف الرجالُ صامتينَ حاسري الرؤوس، وقد ثُبِّتَتْ أنظارُهم على الجُثّة.

ومع ذلك فمن حينٍ إلى آخَرَ كان أحدُهم يَفْصِمُ ذلك الصَّمْتَ الرَّزينَ ليخاطبَ الفقيدَ ببعض العبارات. قالتْ إحدى العجائز:

«لِمَ خلّفْتَ زوجتَكَ الطيِّبةَ ورَحَلْتَ عنها؟.. لِمَ لَمْ تنتظِرْ شهراً واحداً، إذَنْ لوضَعَتْ لكَ كَنَّتُكَ ولداً!...»

وصاح ابنُ الفقيد، وهو شابٌّ فارغُ الطول:

« أوّاه! ليتك متّ تلك الميتة العنيفة لنأخذ بثأرك! »

كانت هذه هي أولى الكلمات التي سمعها أورسو وهو يدخل. ولدى مرآه انفرجت الحلقة. وسرى همس الفضول خافتاً يعبّر عن الأثر الذي أحدثه وصول النَّدابة.

وأقبلت كولومبا على الأرملة تعانقها؛ وأخذت يدها وظلّت كذلك عدّة دقائق ساكنة متأمّلة. خافضة الرأس والعينين. ثم ألقت بطرفي خمارها إلى الوراء. وانحنت على الجثّة تنظر إليها. دون أن تطرف لها عين. وفي وجهها شحوبٌ كشحوب الموت؛ ومن ثمّ بدأت تُنشد على هذا النحو:

« شارل باتيست!
ليستقبل روحك المسيح!
دنيانا هذه دنيا شقوة وعذاب!
وأنت اليوم غادٍ إلى دُنيا،
لا شمس فيها ولا زمهرير!
ما أنت بمحتاج إلى فأس ولا منجل،
فبعد اليوم لن تشقى ولن تعمل،
وأيامك، منذ الآن، آحاد!... »

هنا راحت مادلين تبكي وتنتحب بصوتٍ مرتفع.

وأخذ بعض الرجال ممن يطلقون رصاصهم على الانسان وكأنهم يطلقونه على حجل، أقول أخذوا يمسحون الدمع عن خدودهم السمراء.

واستمرت كولومبا في إنشادها، على هذا النسق، تتوجّه تارةً إلى الفقيد، وأخرى إلى أهله، وأحياناً تتحدّث بلسان الميْت يخاطب أقاربه وأصدقاءه، فيخفّف عنهم وقع المصاب مرّة، ومرّة يسْدي إليهم النصائح ويبصّرهم في الأمور.

ولم يلبث أورسو أن اهتزّ مع الجمع، واتصل به انفعال تلك الحلْقة المتفجّعة، فإذا به ينسحب إلى ركنٍ مظلمٍ من الحُجْرة، ويستسلم للبكاء، كما كان يفعل ابن بيتري.

وفجأةً حدثت حركةٌ خفيفةٌ في الجمْع، وانفرجت الحلْقة، ودخل عددٌ من الغرباء. وكان جلياً، من الاحترام الذي أُبْدي لهؤلاء الزائرين، أنّهم يتمتّعون بمكانةٍ كبيرة، وأن زيارتهم لهذا المنزل تُعدّ شرفاً عظيماً لأصحابه.

كان الرجل الذي دخل أولاً يبدو في الأربعين من العُمر، وكانت علائم السّطوة والثقة البادية على وجهه، تحمل على الاعتقاد بأنه لم يكن سوى الحاكم. وكان يسير وراءه رجُلٌ مُسِنّ، مُحْدَوْدب الظهر، أصفر اللون. لم يكنْ

في وُسْعِهِ أن يخفيَ تماماً، وراءَ نظّاراتِهِ الخضراء، نظرتَهُ الخجلةَ القلقة. ومَنْ كان يرى هذا الرَّجُلَ، وهو لا يبتعدُ خطوةً عن الحاكم، يُخيَّل إليهِ أنه يريدُ أن يختبئَ في ظلِّه.

ودخل على أثرِهِ شابّانِ فارعا القامة، أسمرا اللّون، من طول ما تعرَّضا للشمس، وَجناتُهما مدفونةٌ تحت سوالفَ كثيفةٍ، وفي أعيُنهما اعتزازٌ واستعلاء وفُضولٌ وَقِح.

كان أورسو قد نَسيَ، لطول غيابهِ عن قريتِهِ، وجوه سُكّانِها وأشكالَهم. ولكنَّ مرأى العجوزِ ذي النظّارةِ الخضراء أحيا، على الفور، في نفسهِ ذِكْرَياتٍ شتى من الماضي البعيد. وكان مجرَّدُ سَيْرِهِ وراء الحاكم يكفي لمعرفة شخصهِ: فهُوَ لم يكُنْ سوى المحامي باريتشيني، عُمدةِ بيترانرا، الذي جاء، ومعه ابناهُ الاثنان، في صُحبةِ الحاكم لكي يُتيحَ له فرصةَ الاستماع إلى « البلاّتا » (المرثاة).

إنَّهُ من أشقِّ الأمور وصفُ ما طافَ في نفس أورسو، في تلك اللحظة، من المشاعر. لقد شعرَ، أكثرَ من أيِّ وقت مضى، أنه مستعدٌّ لتقبُّل الشكوكِ التي طالما عارضَها وحارَبَها. أما كولومبا فما إنْ رأتْ ذلك الرجلَ، الذي تحملُ لهُ منذُ القديم حِقداً مُدَمِّراً، حتى اربدَّتْ سِحْنَتُها، واتَّخذَتْ مَظهراً رهيباً: فَشحُبَ لونها، وبُحَّ صوتُها،

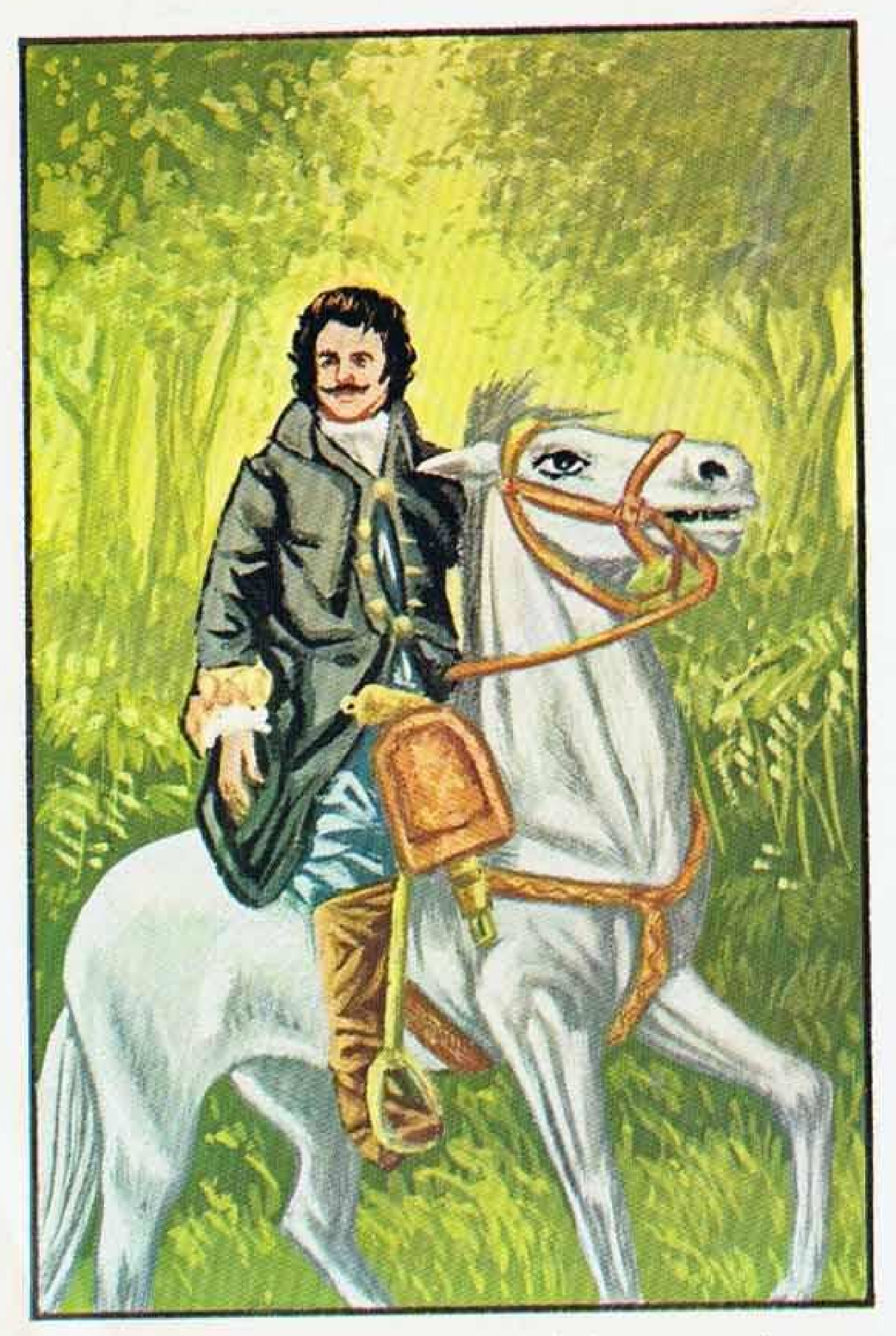
واضمحلَّ على شفَتَيْها بيتُ الشِّعر الذي بدأتْهُ. ولكنَّها سُرعانَ ما استأنفَتِ النشيدَ، وراحت تواصلُ الغناءَ بعُنفوانٍ جديد.. قالت:

« إذا ما انتحَبَ البازي،
وأهمَلَ ذاهلاً عُشَّه،
تُحَوِّمُ من بغاث الطيرِ أسرابٌ،
وتَقْرَبُ عُشَّهُ الخالي
وتَسْخَرُ من جِراحاتِهْ! »

عندئذ سُمِعَ صوتُ ضحكٍ مكتوم، صادرٍ عن الشابَّيْن اللّذَيْنِ دخلا منذُ قليل، إذ وَجَدا هذه الكناية بالغةَ الجرأة. فاستطردت كولومبا تقول:

« سيصحو ذلك البازي،
ويَبْسُطُ في الفضا جُنْحَهُ،
ويَغْسِلُ بالدِّما المِنْسَر! »

وراحت تخاطبُ المَيْتَ وتقول إن اليتيمةَ لن تبكيَهُ لأنه عاش سعيداً وماتَ في هدوء، فدموعُها تجري على والدها الذي نالتْهُ يد الغَدْر. وهيَ لن تهدأ حتى ينالَ المجرمُ عقابه.



٣ - ولم يصح من ذهوله إلا عندما توقف حصانه...

وما إن نطقَتْ بالأبيات الأخيرةِ حتى تهالكَتْ على كُرْسيٍّ بجانبها، وأرخَتْ خِمارَها على وَجْهها. فسمِعَها الجَمْعُ وهي تَشْهَقُ وتنتحب. والتفَّتِ النسوةُ حَوْلَها وهُنَّ يُرْسِلْن الدموعَ السَّخيَّة. وراحَ بعضُ الرجالِ يَحْدجون المختارَ وابنَيْهِ بنظراتٍ وَحْشيّةٍ ملؤُها الحِقْدُ والغضب. كما أخذ عددٌ من الشيوخ يتذمَّر من الفضيحةِ التي تسبَّبَ بها هؤلاء الثلاثةُ بحضورهم.

وشقَّ ابنُ المتوفَّى الجَمْعَ متوجِّهاً نحو العمدة، ليطلبَ إليه مغادرةَ المكانِ في الحال. ولكنَّ العُمدةَ لم ينتظِرْ هذه البادرةَ، فقد اتجهَ إلى الباب قبل أن يصلَ إليه الفتى، وكان ابناهُ قد سبقَاهُ، وأصبحا في الشارع. ولم يلبَثِ الحاكِمُ أن تبِعَهُمْ، بعدَ أن وَجَّهَ كلماتِ العزاء إلى ابن الفقيد.

أما أورسو فقد أقبَلَ على أختِهِ، فأخذها من ذراعِها وقادها خارجَ الحجرة.

قال بيتري الشابُّ لبعض أصدقائه:

«رافِقوهما، واعملوا على الا يُصابا بأيِّ أذى!»

فانبرى اثنان أو ثلاثةٌ من الفتيانِ الأشدّاء، فوضعَ كلٌّ خَنْجرَهُ داخل كُمِّهِ الأيسرِ. وتبعُوا أورسو وأختَهُ حتى باب منزلها.

١٣ . زيارة الحاكم

كانت كولومبا مبهورةَ الأنفاس، خائرةَ القُوى، عاجزةً عن النُّطق بأيِّ كلمة. وكانت مُسْندةً رأسها إلى كتفِ أخيها، كما كانَتْ قابضةً على إحدى يَدَيْهِ بكلتا يَدَيْها. وبالرَّغم من أن أورسو كان مستاءً، بينه وبين نفسه، لأنها ألقَتْ تلك المرثاة، فإنَّهُ لم يكنْ يستطيعُ أن يوجِّه إليها أيَّ لوم، لشدَّة قلقهِ عليها.

وبينما كان ينتظرُ، في صمتٍ، نهايةَ تلك الثورة العَصَبيّة، التي كانت فريسةً لها، إذا به يسمعُ قَرْعاً على باب الحُجْرة، ثم إذا بساڤيريا تدخُلَ وهي في غايةِ الذهول، وتعلن عن مجيء « سيادةِ الحاكم ».

وما إنْ سمعَتْ كولومبا هذا الاسمَ حتى انتصَبَتْ واقفةً، كأنها خجلَةٌ مما كانت عليهِ من الضَّعْف والخَوَر؛ واستندَتْ إلى كرسيّ، كان يهتزُّ تحت يدها المضطربة.

بدأ الحاكم حديثَهُ بعبارات اعتذارٍ مبتذَلةٍ عن زيارتهِ في تلك الساعةِ غيرِ الملائمة وأبدى أسفَهُ لحال كولومبا، مصوِّراً أخطارَ الانفعال الشديد، منددّاً بعادةِ النَّدْب في المآتم، ذلك النّدْب الذي زادت شاعريّةُ الندّابةِ من تأثيره في النفوس، ووطأتِهِ عليها. وبحذقٍ ألقى بعضَ كلماتِ اللّوم

بخصوص المعاني الأخيرةِ التي عبَّرَتْ عنها كولومبا. ثم غيَّرَ لهجَتَهُ فجأةً، وقال لأورسو:

«لقد كلَّفني أصدقاؤُكَ الانكليزُ، يا سيِّد ديلاريبيا، بأن أُبْلغَكَ تحياتِهم.. والآنسة نيفل ترسلُ أحرَّ العواطفِ إلى الآنسة شقيقتِكِ؛ وأنا أحملُ إليك رسالةً منها.»

صاح أورسو:

«رسالة من الآنسة نيفل؟»

– «إنها ليستْ معي، لسوء الحظّ؛ ولكني سأبعثُ بها إليك بعد خمسِ دقائق!»

وبعد أن تحدَّثَ عن العقيد وابنتهِ، ورجاحةِ عقلِ ليديا، قال:

«إن مجيئي إلى هنا، يا سيِّد ديلاريبيا، يكاد يكون نزولاً على رجائها!.. إن أحداً لا يدركُ إدراكي للكارثةِ، التي لا حاجة بي إلى تذكيرِكَ بها!.. وبما أنّ السيّد باريتشيني لا يزالُ عُمدة لبيترانرا، وأنا لا أزالُ حاكماً لهذه المنطقة، فلستُ في حاجة إلى القول بأنني قَلِقٌ من الشكوك، التي حاولَ بعضُ الناس، غير المدركين، أن يَبُثُّوها في نفسِك، إذا لم أكنْ مخطئاً.. وأنا أعلمُ أنك رفضْتَها بأستهجان، كما كان يُنْتَظَرُ منك، نظراً لمكانتِك وخُلُقِك!»

فالتفت أورسو إلى أختِهِ، التي كانت تنتفضُ على كرسيِّها، وقال:

«أنتِ جدُّ مُتْعَبَة، يا كولومبا!... والأفضلُ لكِ أن تذهبي إلى حُجرتك لتنامي!»

فأومأتْ برأسها نفياً، واستعادَتْ مَظْهَرَ هدوئها المعتاد، وثبَّتَتْ نظراتِها المتَّقدَةَ على الحاكم، الذي مضى يقول:

«إن السيِّد باريتشيني يتمنى، من كل قلبِه، أن ينتهي هذا الضَّربُ من العِداء، أو الموقفُ من الشكِّ، الذي يقفُهُ كلٌّ منكما تجاهَ الآخر. أما أنا فإنه ليُسْعِدُني أن أراكما تُقيمان، فيما بينكما، العلاقاتِ الطبيعيةَ، التي يجبُ أن تقومَ بين أُناسٍ وُجِدوا ليتبادلوا الاحترامَ والتقدير...»

فقاطعَهُ أورسو، قائلاً بصوتٍ مضطرِب:

«إنني، يا سيدي، لم أتَّهِمْ قطُّ المحامي باريتشيني باغتيال والدي!.. ولكنَّهُ ارتكب عملاً يمنعُني من إقامةِ أيِّ علاقةٍ معه في يوم من الأيام: لقد زوَّرَ رسالةً بأسم لصٍّ يُدعى... ونسَبَهُ، على الأقلّ بطريقة ضِمنيّة، إلى والدي.. وهذه الرسالة، يا سيدي، قد تكون هي السببَ غيرَ المباشرِ لموتِ والدي!»

ففكَّرَ الحاكمُ لحظةً ثم قال:

«إذا كان السيّدُ والدُك قد اتّهم السيد باريتشيني بذلك، فمن الممكن تبريرُ عملِه نظراً لمزاجِه العَصَبي. أما أن يأتي عَدَمُ التمييز هذا منكَ أنت، فإنه أمرٌ لا يُغتفر!.. فكِّرْ قليلاً ترَ أن باريتشيني لم تكنْ له أيّةُ مصلحةٍ في تزوير هذا الكتاب! إنني لن أتحدّثَ إليك عن خُلُقِه، فأنت لا تعرفُهُ مُطلقاً، كما أنك مُغْرِضٌ بالنسبة إليه.. ولكنْ هل يُعقَلُ أنّ رجلاً يعرفُ القانون...»

فقاطعَهُ أورسو قائلاً وهو ينهض:

«أرجو أن تعرفَ، يا سيدي، أن مجرَّد قولِكَ إنّ هذه الرسالةَ ليستْ من وَضْعِ السيد باريتشيني، معناهُ أنكَ تَنْسِبُها إلى والدي: إن شَرَفَهُ، يا سيِّدي، هو شرفي!»

– «إنّ أحداً لا يؤمنُ بشرَف العقيد ديلاريبيا إيماني بهِ أنا! ولكنّ كاتبَ هذا الخطابِ قد أصبحَ الآنَ معروفاً!»

فصاحت كولومبا، وهي تتقدم نحو الحاكم:

«مَنْ؟»

– «هناك شقيٌّ، في حياتِه جرائمُ عدّةٌ، من ذلك النوع الذي لا تَغْتَفِرونَهُ، أنتم الكورسيكيين، أيْ أنّهُ سارق، وهو الآن في سجن باستيا واسمُه توماسو بيانكي.. هذا الشقي قد اعترف بأنهُ هو كاتبُ الخطاب!»

قال أورسو:

«إنني لا أعرفُ هذا الرجل، فما يمكنُ أن يكونَ هدفُهُ من ذلك؟»

فأجابَتْهُ كولومبا قائلةً:

«إنهُ رجلٌ من هذه البلاد، وهو شقيقُ طحانٍ كان يعملُ عندنا؛ ولكنهُ خبيثٌ مُفْتَرٍ لا يصدَّقُ له كلام!»

وعاد الحاكمُ يقول:

«سترى أيَّ مصلحةٍ له في هذه المسألة. فالطحّانُ الذي ذَكَرَتْهُ شقيقتُكَ، ويدعى تيودور على ما أعتقد، كان مستأجراً لطاحونة تقومُ على المجرى المائيّ، الذي كان السيد باريتشيني ينازِعُ السيِّدَ والدَك على مِلكيّته، وكان العقيدُ، الكريمُ بطبعه، لا يَجْني فائدةً تُذكَرُ من هذه الطاحون، ففكّر توماسو أن السيد باريتشيني سيطلبُ أجرةً كبيرةً للطاحون إذا آلت إليهِ مِلْكيّتُها، لأنّهُ معروفٌ بحبِّهِ للمال، فزوَّرَ هذا الخطابَ ليخدِمَ أخاه. وأنت تعرفُ أن الصِّلاتِ العائلية في كورسيكا هي من القوّة والمتانة بحيث تقودُ أحياناً إلى ارتكاب الجرائم في سبيل الأقرباء!.. تفضّلْ اقرأ هذه الرسالة، التي تلقّيْتُها من النائب العام، وستُثْبتُ لكَ ما أخبرْتُكَ به الآن!»

فتصفّحَ أورسو الكتابَ، الذي يَرْوي بالتفصيل اعترافاتِ توماسو. وكانت كولومبا تقرأُهُ من فوق كَتِفِ أخيها. ولما انتهت، صاحت:

- «لقد ذهب أورلندتشيو باريتشيني إلى باستيا منذُ شهر، عندما علموا بأن شقيقي سيعودُ إلى القرية. ولا بُدَّ أنه اجتمع بتوماسو واشترى منه هذه الفِدْية!»

قال الحاكم فارغَ الصبر:

«إنكِ تفسّرينَ كلَّ شيء، يا آنسة، بافتراضاتٍ مُنْكَرَة! أهذه هي الوسيلةُ للكشف عن الحقيقة؟!.. أنتَ، يا سيدي.. إنك هادىء الطبع.. قل بحقِّك ماذا ترى الآن؟»

فأعاد أورسو قراءةَ الخطاب وازناً كلَّ كلمة، ورأى نفسَهُ، آخر الأمر، مضطراً للاعترافِ بأن هذا التفسيرَ يبدو معقولاً. ولكن كولومبا صاحَتْ بقوة:

«إن توماسو رجلٌ خدَّاع!.. إنني واثقة من أنه لن يُدان، أو أنه سَيَهْربُ من السجن!»

فرفَعَ الحاكمُ كتِفَيْهِ وقال:

«لقد أطْلَعْتُكَ، يا سيدي، على ما تلقَّيْتُهُ من أخبار، وسأمضي الآن وأترُكُكَ لتأمُّلاتك؛ وسأنتظرُ ريثما يُنيرُ لك

عقلُكَ الطريق؛ وآملُ أن يكونَ أقوى من.. افتراضاتِ شقيقتِك!»

وبعدَ أنِ اعتذرَ أورسو عن كولومبا ببضع كلماتٍ كرَّرَ أنه يعتقدُ الآنَ أن توماسو هو الجاني الوحيد. قال الحاكم، وقد نهض ليخرُج:

«لو لم يكنِ الوقتُ متأخراً لاقترحتُ عليكَ أن ترافقَني لأخْذِ رسالةِ الآنسة نيقل.. وفي هذه المناسبة يُمْكِنُكَ أن تقولَ للسَّيد باريتشيني ما قلْتَهُ لي، وينتهي كلُّ شيء!»

قالت كولومبا بهياج:

«إن أورسو ديلاريبيا لن يَدْخُلَ يوماً دارَ أحدٍ من آل باريتشيني!»

فردَّ الحاكم ساخراً:

«يبدو أنَّ الآنسةَ هي قائدةُ العائلة!»

فأجابتْ بصوتٍ رصين:

«إنهم يَخْدَعونك، يا سيِّدي! فأنتَ لا تعرفُ المحامي.. إنه أشدُّ الناس دهاءً وخِداعاً!.. أتوسَّلُ إليك، يا سيِّدي، ألا تحملَ أورسو على عملٍ يُورِثُهُ الخزْيَ والعار!»

قال أورسو:

« كولومبا! إنَّ هذا الهَوَسَ يُفْقِدُكِ الصواب! »

– « أورسو! أورسو! أتضرَّعُ إليك أن تصغيَ لي!.. إنَّ بينك وبين آل باريتشيني دَماً! فلا تذهبْ إلى دارِهم! »

– « أختي! »

– « كلا، يا أخي! إنك لن تذهب، وإلاّ فإنني سأغادرُ هذا المنزل، ولن ترى لي وجهاً بعدَ اليوم!.. رِفْقاً بي، يا أورسو! »

وركعَتْ أمامَ أخيها. وفتحَ الحاكمُ البابَ وتوقَّفَ كأنَّهُ ينتظرُ أورسو فقال له هذا:

« إنني لا أستطيعُ أن أترُكَها الآنَ! غداً... »

– « غداً سأرحلُ في ساعة مبكرة! ».

فصاحت كولومبا وهي تَضُمُّ يَدَيْها في توسُّلٍ:

« انتظِرْ، يا أخي، على الأقلّ إلى الغد!.. دَعْني أعيدُ النظرَ في أوراق والدي!.. إنكَ لا تستطيعُ أن ترفُضَ لي مطلباً كهذا! »

– « أنظري فيها إذن هذه الليلة؛ ولكنْ لا تعودي إلى ارهاقي بهذا الحِقْدِ المجنون!.. استميحُكَ عُذراً. يا سيِّدي الحاكم!.. أشعُرُ أنني أنا نفسي في حالةٍ غير طبيعية؛ إنه من

الأفضلِ أن نؤجِّلَ هذا إلى الغد! »

قال الحاكمُ وهو يمضي:

« إنَّ الليلَ خيرُ ناصح!.. وقد تنجلي هذه الحيرةُ غداً! »

ونادت كولومبا:

« ساڤيريا! احملي السِّراجَ ورافقي سيادةَ الحاكم. وسيعطيكِ رسالةً لأخي! »

وأسرَّت إليها بضعَ كلماتٍ أخرى. ثم أخذَتْ مجموعةً من المفاتيح وصعدَتْ إلى إحدى الحُجُرات في الطابقِ الأعلى.

١٤. رسالة الملاك الحارس

طالَ غياب ساڤيريا حتى لم يَعُدْ لدى أورسو أيُّ اصطبار. وقد كان في غاية الضِّيق. عندما عادَتْ إليه. وهي تحملُ الرسالة. ووراءَها شيلينا الصغيرة تَفْرُكُ عينيْها. لأنها أُوقظَتْ في مُسْتَهلِّ نومها.

قال أورسو:

« لماذا أتيتِ. في هذه الساعة. أيَّتُها الصغيرة؟ »

– « لقد طَلَبَتْني الآنسة! »

قال في نفسه: « يا لَلشَّيطان! ماذا عساها تريدُ منها؟!»

ولكنه لم يتوقَّفْ عند هذه الفكرة، بل عَمَدَ إلى فضِّ الخطاب، الذي جاءَهُ من الآنسة ليديا؛ ثم راحَ يقرأُهُ بينما كانت شيلينا تصعدُ إلى غرفة أخته.

قالتِ الآنسة نيفل في رسالتها:

« ... لقد كان والدي مريضاً، يا سيِّدي. على أيِّ حال هو كسلان إلى درجةٍ كبيرة. مما اضطَرَّني إلى أن أكونَ سكرتيرةً له!.. أنتَ تعرفُ أنه بَلَّ قدمَيْه. منذ أيام، على شاطىء البحر، بَدَل أن يجلس إلى جانبنا. ويستمتع بجمال الطبيعة.. وهذا يكفي في جزيرتكُمُ الجميلةِ للإصابة بالحُمَّى! إني لأستطيعُ أن أرى من هنا التعبيرَ الذي ارتسمَ الآنَ على وجهك.. ولا شكَّ أنك تبحثُ عن خَنْجرِك!.. ولكنْ أعتقدُ أنهُ لم يَبْقَ لديكَ خَنْجر!...»

ومضَتْ على هذا النحو تحدِّثُهُ بروحٍ فَكِهةٍ مالئةً أربعَ صفحات. وقد تحدَّثَتْ عن الحاكم الذي أرسلَ لوالدها طبيباً عُنِيَ به وأنقَذَهُ. وأخبرَتْهُ بأن الحاكمَ ذاهبٌ إلى بيترانرا من أجله، على ما تعتقد وامتدحَتْهُ وطلبت من أورسو أن يعملَ بنصيحته. وعتبَتْ عليه لأنه لم يكتبْ إليها ويُطَمْئنْها عن وصوله. وأعلنتْ له أنها ووالدَها

سيزورانه وهما في طريقهما إلى باستيا.. وأنها ستكتبُ إلى كولومبا لتستقبلها بطَبَق « البروكشيو » المفضل.. ورجَتْهُ أن يُبْلغَ أختَهُ عواطفَها ويُخْبِرَها بأنها تستخدمُ خَنجرها على أوسعِ نطاق، إذْ أنها تَقْطَعُ به أوراقَ قصةٍ تقرأها، ولا بدّ « أن هذا السلاحَ الرهيبَ غاضبٌ لأنه يُستخدَمُ لغرضٍ كهذا الغرض!». كذلك طلبتْ منه أن يكتُبَ إليها رسالةً طويلةً لأنها ضَجِرة. وفي نهاية الرسالة كتبتْ هذه الأسطر:

« ملاحظة: أطلبُ منك أن تستمعَ إلى الحاكم وتعملَ بما يقولُهُ لك! لقد قرَّرْنا معاً أن عليك أن تتصرَّفَ على هذا النحو.. وهو شيء يُرضيني!»

قرأ أورسو هذا الخطابَ ثلاث مراتٍ أو أربع.. وفي كل مرة كان يعلِّق تعليقاتٍ لا حصْرَ لها.. ثم كتبَ رداً بالغَ الطول، وكلَّفَ ساڤيريا بأن تحملَهُ إلى رجلِ كان سيسافرُ في نفسِ الليلةِ إلى أجاكسيو.

ولم يَعُدْ يفكِّرُ في مناقشة الشكاوى مع أخته، ضدَّ باريتشيني؛ لأن رسالةَ ليديا كانت تُريه كلَّ شيء جميلاً.. لم يَبْقَ في نفسه لا شكوكٌ ولا بُغضٌ! وبَعْدَ أنِ انتظرَ طويلاً نزولَ أُخْتِهِ فلم تنزلْ، صعدَ إلى حُجرته لينام، وفي قلبه فرحةٌ لم يَشْعُرْ بمثلها منذُ زمنٍ بعيد.

أما كولومبا، فبَعْدَ أن أطلقت شيلينا الصغيرة

بتعليمات سرِّية. قَضَتِ الجانبَ الأكبرَ من الليل في قراءة أوراقٍ قديمةٍ تركها والدُها. وقبل بزوغ الفجرِ بقليلٍ رشقَتْ حصاةً صغيرةً على نافذتِها. فنزلتْ، لدى هذه الإشارة، إلى الحديقة، وفتحتْ باباً جانبياً أدخلَتْ منه رجلَيْن في غاية الرثاثة. وكان همَّها الأول أن تقودَهما إلى المطبخ لتقدِّم إليهما الطعام.

١٥ . مسرحية اللصوص

حوالى الساعةِ السادسةِ من الصباح كان يقفُ على باب أورسو خادمٌ من قِبَل الحاكم. وقد تلقَّتْهُ كولومبا؛ فقال لها إن الحاكمَ على وَشْك السفر، وهو في انتظارِ أخيها. فأجابتْهُ، دون أيِّ تردُّدٍ، بأنَّ أخاها قد وقع من فوق السُّلَّم، فالتوتْ رِجله. وبما أنه عاجزٌ تمامَ العجز عن أن يخطُوَ خُطْوةً واحدةً، فهو يرجو من سيادة الحاكم أن يَعْذُرَهُ.. وهو سيكونُ مُمْتناً له كلَّ الامتنان إنْ هوَ تحمَّلَ مشقَّةَ المجيءِ إليه.

ولم يمضِ على ذلك سوى القليل، حتى هبطَ أورسو إلى الدار، وسأل أختَهُ عما إذا كان الحاكمُ قد أرسل في طلبِهِ. فأجابتْهُ كولومبا بمنتهى الهدوء والثقة، قائلةً:

«إنه يرجو منك أن تنتظرَهُ هنا!»

ومرَّ نحوُ نصفِ ساعةٍ دون أن تبدُوَ أيُّ حركةٍ من ناحية دارِ باريتشيني. وسأل أورسو أختَهُ إن كانت قد اكتشفَتْ شيئاً جديداً؛ فقالت إنها ستُعْلِنُ ذلك أمامَ الحاكم. وكانت تتصنَّعُ الهدوء التامَّ. ولكنَّ شحوبَ وجهها واضطرامَ عينَيْها كانا ينمَّان عن اضطرابٍ عصبيٍّ شديد.

وفُتِحَ آخرَ الأمر، بابُ المنزلِ الذي يَقْطُنُهُ آل باريتشيني، وظهرَ الحاكمُ في ملابسِ السَّفر، ووراءَهُ العمدةُ وأبناه. وما كانَ أشدَّ دَهَشِ السُّكان، الذين تجمَّعوا هناك منذُ بزوغِ الشَّمسِ ليَشْهدوا رحيلَ الرئيسِ الأوَّلِ للمنطقة، عندما رأَوْا هذا الموكبَ يجتازُ، في خطٍّ مستقيمٍ ساحةَ القرية ويَدْخُلُ إلى دار ديلاريبيا.

وصاحَ «ساسةُ» القرية:

«إنَّهم يُعْلِنونَ السلام!»

وقال رجلٌ منهم:

«ألم أقل لكم إن أورس أنتون قضى في القارَّة من الزمان ما يجعلُهُ يعالجُ الأمورَ بطريقةٍ مختلفةٍ عن طُرُق الرَّجُل الشجاع؟!»

وعجبَ الحاكمُ أيَّما عجبٍ عندما رأى أورسو واقفاً على قدمَيْه، يسير دون أي عناء. واعتذرت إليه كولومبا

بكلماتٍ قليلةٍ عن كذبها، قالت:

«لو نزلتَ، يا سيدي، في مكانٍ آخر لسعى أخي إليك، منذُ الأمس، لتقديم احترامه!»

وراح أورسو يَصُوغُ عباراتِ الاعتذار، مُعْلِناً ألا دَخْلَ له في هذه الحيلةِ المضحكة، التي آلمته أشدَّ الإيلام. وبدا على الحاكم وباريتشيني الشيخِ أنهما مقتنعان، ولكن ابْنَيْ العمدةِ لم يقنعا ولم يَرْضيا. قال أورلندتشيو بصوت مسموع:

«إنهم يهزأون بنا!»

وقال فانسنتيلو:

«لو أن أختي لجأت إلى مثل هذه الحيل لَحَرَمْتُها القدرةَ على العودة إليها!»

ولم تُعْجِبْ أورسو هذه الكلمات، ولا اللّهجةُ التي قيلت بها. وقد أفقَدَتْهُ جانباً من نيَّتِهِ الطيِّبة واستعدادِهِ للتفاهم، فتبادَلَ مع الشابين نظراتٍ ليس فيها أثرٌ للوُدّ!

وبدأ الحاكم بكلام عامّ، ثم بَسَطَ المسألة وأعلن أن السيد ديلاريبيا مستعدٌّ للتفاهم. فتقدَّمت كولومبا وأبرزت أوراقاً قديمةً تُثبت أن والدَها تسلّم الطاحونَ من شقيق توماسو في أول تموز واتفق مع طحانٍ آخر لتسلّمها. في

حين أن الخطابَ المزوَّرَ مؤرَّخٌ في الحادي عشر من تموز. وبهذا ثبت كذبُ باريتشيني.

وهنا توتَّر الجو توتُّراً شديداً. وفي هذه اللحظة خرج على الموجودين اللصّان براندولاتشيو والمجاز في اللاهوت ومعهما الكلب بروسكو. وفي استطاعة المرء أن يتصوَّرَ الأثرَ الذي أحدثَه ظهورُهما المفاجىء على هذا النحو. لقد أوشك العُمدةُ أن ينقلب على ظهرِهِ؛ وقفزَ والداهُ منتصبَيْن أمامَهُ بشجاعة ويداهما تبحثان عن خَنْجَرَيْهما؛ وخطا الحاكمُ نحو الباب، بينما كان أورسو يصرخُ في براندو لاتشيو، وهو يُمسك بتلابيبه:

«ماذا جئت تفعل هنا، أيها الشقي؟!»

وصاح العمدة وهو يحاولُ فتح الباب:

«هذا كمين!»

ولكنَّ الباب كان مُقْفَلاً من الخارج بأمرٍ من اللصَّيْن.

قال براندولاتشيو:

«لا تخافوا مني، أيها الناسُ الطيبون، فأنا لست رديئاً بِقَدْر ما أبدُو! ليستْ لدينا أيُّ نيّةٍ سيئة!.. سيدي الحاكم، إنني خادمُك المطيع!.. رفقاً بي، يا سيدي الملازم فأنت

تخنقني!.. لقد جئنا هنا كشاهدين!.. هيّا تكلم، أيها الكاهن!»

وروى الكاهن أنه خلال وجودِهِ في سجن باستيا، الذي هرب منه قبل ثلاثة أسابيع. تعرّف بالسجين توماسو بيانكي. وكان اورلندتشيو باريتشيني يزور هذا الأخيرَ المرّةَ بعْدَ المرة. وكان بيانكي يُنفق عن سعة، حتى إن الكاهن تعشّى على حسابه عدة مرات. ولما عزمَ على الهرب رأى من واجبه أن يعرضَ على بيانكي مرافقتَهُ. وذلك وفاءً للخبز والملح. ولكن بيانكي رفض وقال «إنه مطمئنٌ إلى قضيته. وإن المحامي باريتشيني قد أوصى به جميعَ القضاة. وإنه سيخرجُ وصَفْحَتُهُ بيضاء كالثلج وفي جيبه مالٌ أيضاً!»

ثم انسحب اللصّان، وهربا من باب الحديقة. وبعد مضيّ وقت كافٍ سُمع صفيرٌ، فانفتح الباب بضربٍ من السحر. قال أورسو بغضب مكظوم:

«إنني أعتبرك مزوِّراً، يا سيد باريتشيني! وسأبعثُ، من هذا اليوم، بشكوى ضدّكَ إلى النائبِ العامّ بتهمة التزوير والتواطؤ مع بيانكي؛ وقد أرفعُ عليك دعوى أخطرَ من ذلك بكثير!»

– «وأنا أيضاً، يا سيد ديلاريبيا، سأقدّم شكوى

ضدّكَ لتدبير هذا الكمين والتواطؤ مع اللصوص! وفي انتظار ذلك سيُسَلِّمك سيادةُ الحاكمِ إلى الدَّرك!»

فقال الحاكمُ بلهجة قاسية:

«إن الحاكمَ سيقوم بما يُمليه عليه واجبُهُ! وسيعملُ على ألا يُعكّرَ الأمن في بيترانرا، ويَهتمّ بأن تأخذَ العدالةُ مجراها! هذا الكلام موجَّهٌ إليكم جميعاً، أيها السادة!»

كان العُمدة وڤانسنتيلو قد أصبحا في آخر القاعة، وكان أورلندتشيو في أثرهما يمشي القَهْقَرى. فقال له أورسو بصوتٍ منخفض:

«والدُكَ رجلٌ عجوز، أسحَقُهُ بصفعةٍ واحدة! فإليك أنت سأوجّهُ ضربتي.. إليك وإلى أخيك!»

جواباً على هذا استلَّ أورلندتشيو خَنْجَرَهُ وهجم على أورسو كالمجنون. ولكنْ قبل أن يستخدمَ سلاحه، أمسكت كولومبا ذراعَهُ ولَوَتْها بقوّة، في الوقت الذي سدّد فيه أورسو لكمةً إلى وجهه ردّتْهُ خُطُواتٍ إلى الوراء، فاصطدمَ بالباب بشدّة، ووقع الخنجر من يده. ولكن ڤانسنتيلو عادَ إلى القاعة وخَنْجَرُهُ في يده فقفزت كولومبا إلى بندقيةٍ قريبة، وأثبتَتْ له أنّ المعركةَ غيرُ متكافئة. وفي نفس الوقت أسرعَ الحاكمُ يقفُ بين الطرفين.

وصاح أورلندتشيو:

« إلى اللقاء، يا أورس أنتون! »

وصَفَقَ البابَ وراءه، ثم أقفلَهُ بالمفتاح ليمنح نفسه الوقتَ الكافي للانسحاب.

وقبل أن يخرُجَ الحاكمُ رجا من أورسو أن لا يطلُبَ أورلندتشيو للمبارزة وأن يَبْقَى في بيته هادئاً إلى أن يعودَ، هو، بعد ثلاثة أيام وفي صحبتِهِ النائبُ العام، للبتِّ في هذه المسألة بصورة نهائية. وقال أورسو إنه سيدافعُ عن نفسه فيما لو استخدمَ العُمدةُ سلطتَهُ وحاول القبضَ عليه بواسطةِ الدَّرك. فأعلن له الحاكمُ أن العُمدةَ موقوفٌ عن العمل ابتداءً من ذلك اليوم.

بعد أن خرجَ الحاكمُ قالت كولومبا:

« أورسو! أنتَ لَسْتَ في « القارّة »! إن أورلندتشيو لا يفهم شيئاً عن المبارزات التي تَذْكرها!.. ثم إن هذا الشقيَّ لا يجبُ أن يموتَ مِيتَةَ الشُّجعان! »

« كولومبا، أيتها الأخت البرّة! لأنتِ المرأةُ القوية! إنني أدينُ لكِ بالشكر العميق لإنقاذي من طعنة خنجرٍ ماضية! أعطيني يَدَكِ الصغيرة لأقبِّلَها!.. ولكن دعيني أتصرَّف!.. إن هناكَ أشياء لا تفهمينها!.. هاتي لنا الغَداء! وحالما

يغادرُ الحاكمُ القريةَ أطلبي لي شيلينا الصغيرة.. سأحتاجُ إليها في إرسال خطاب! »

وبينما كانت كولومبا تُشْرِفُ على إعداد المائدة، كان أورسو يكتبُ الرُّقْعَةَ التالية:

« لا بُدَّ أنك تَوَدُّ مبارزتي بسرعة. ولستُ بأقلَّ رغبةً في هذا منك! نستطيعُ أن نلتقيَ غداً في الساعةِ السادسةِ صباحاً في وادي أكاڤيڤا. إنني حاذقٌ جداً في استخدام المُسَدَّس، لهذا لا أعرِض عليك هذا السلاح. يقال إنك تُجيدُ استعمالَ البندقية. فليأخُذْ كلٌّ بندقيةً بطَلْقَتَيْن. سآتي مصحوباً برَجُلٍ من القرية. إذا شاء أخوك أن يصحبَكَ فخُذْ شاهداً آخَرَ، وأعلِمْني بذلك.. في هذه الحالةِ فقط سيكونُ معي شاهدان! »

أورسو انطونيو ديلاريبيا

بعدَ أن مكثَ الحاكمُ ساعةً من الزمن عند مساعدِ العُمدة، دخل لمدة خمسِ دقائق إلى منزل آل باريتشيني. ثم غادر القريةَ إلى « كورتي » ومعه دَرَكيٌّ واحد. ولم يَمْضِ على ذلك سوى رُبْعِ ساعةٍ حتى حملت شيلينا الرُّقْعَةَ المتقدِّمةَ إلى أورلندتشيو وسَلَّمَتْهُ إياها يداً بيد.

وتأخَّرَ الرَّدُّ فلم يصِلْ إلا في فترة السهرة: وكان مُوَقَّعاً

باسم باريتشيني الأب، وفيه يعلنُ هذا لأورسو أنه سيحوِّلُ خطابَ التهديدِ الموجَّهَ لابنِهِ إلى النائبِ العام. وختمَ الرسالةَ بقوله: « وإني لأنتظر، وأنا مرتاحُ الضمير، حتى تقولَ العدالةُ كلمتَها في اتهاماتِكَ الباطلة! »

ومع ذلك فقد أقبلَ خمسةٌ أو ستةٌ من الرعيان، الذين أرسلت كولومبا في طَلَبهم، ليُحَصِّنوا برج ديلاريبيا. وبالرغم من اعتراض أورسو الشديد، أقيمت الحواجزُ والمتاريسُ على النوافذ المطلَّة على الساحة. وفي كلِّ لحظةٍ من لحظات الليل كان أورسو يتلقى عروضاً من أهل القرية لتقديمِ الخِدَمات. بل إنه وَرَدَ خطابٌ من المُجاز في اللاهوت يَعِدُ فيه، بِاَسْمِهِ وبِاَسْمِ براندولاتشيو، بالتدخُّلِ إلى جانبهِ إذا وَقَفَ الدَّرَكُ في جانب العُمدة.

١٦ . محاولات كولومبا

مرَّ اليومُ التالي دونَ اشتباك. وكانَ كلُّ فريقٍ يلتزمُ موقفَ الدفاع. ولم يَخْرُجْ أورسو من منزلِه. كما أن باب الباريتشينيين ظلَّ مغلقاً بصورةٍ مستمرة. وكان الدركيُّونَ الخمسة، الذين تُركوا في بيترانرا كحاميةٍ لها، يتنزَّهون في ساحةِ القريةِ أو في جوارِها، وكان يرافقُهُمْ الناطور، الذي يمثِّل « الميليشيا المحلِّية ». وكان نائب العُمْدةِ مرتدياً

وشاحَهُ دونَ انقطاع. ولكن فيما عدا الاستحكاماتِ على نوافذِ الفريقَيْن لم يكنْ هناك ما يَدُلُّ على وجود حَرب. ولكنَّ الكورسيكيَّ لا بُدَّ أن يلاحظَ أنه لم يكن في الساحة، حولَ السِّنديانةِ سوى النساء.

عند العَشاء أطلعت كولومبا أخاها، وهي في غاية الفرح، على رسالة تلقَّتْها من الآنسة ليديا. وفيها تعلنُ أنها وأباها سيكونان في بيترانرا في نحو الساعة الحادية عَشْرَةَ من بعد الغداة. فصاح أورسو:

« إذن هي لم تأخذ خطابي الثاني! »

– « أنت ترى من تاريخ خطابها أنها كانت قد غادرت أجاكسيو عندما وصلَتْ رسالتُك!.. أتشيرُ عليها بألا تأتي؟ »

– « قلت لها إننا في حالة حصار!.. هل في إمكاننا أن نستقبلَ أحداً ونحنُ في هذه الحال؟! »

– « إن للانكليز لأطواراً غريبة!.. فلقد قالت لي الآنسة نيفل، في آخر ليلةٍ قضيتُها في حُجرتها، إنها ستتركُ كورسيكا وفي نفسها حسرةٌ إذا لم تشهد « فنديتّا » جميلة (عملية ثأر). فماذا تقول لو أتحنا لها مثلَ هذا المشهد؟ وذلك بأن نَشُنَّ هجوماً على دار أعدائنا؟ »

– « أتعرفين، يا كولومبا، أن الطبيعة قد أخطأت إذ جَعَلَتْكِ انثى؟! لو كنتِ رجلاً لكنتِ جندياً من الطِّراز الأول!»

واقترحتْ عليه أن يذهبَ في صباح اليوم التالي ليخبرَ صديقيْها بما حدث. فإن أصرّا على المجيء، فمرحباً بهما! فوافقَ على هذه الفكرة. ثم عادت كولومبا تقول:

« لعلّكَ ظننتَ أني كنت أمزَحُ عندما عرضتُ فكرةَ الهجوم على دار باريتشيني؟! إعلَمْ أن نسبةَ عددِنا إليهم هي اثنان لواحد، على الأقلّ. فمنذُ أنْ كفَّ الحاكمُ يدَ العُمْدة عن العمل أصبح جميعُ الناس معنا، وأصبح في وُسْعنا أن نَفرِيَهُمْ فَرْياً! إنَّهُ من السَّهل بدءُ المعركة: فإن شئتَ وأذِنْتَ لي، خرجتُ، أنا، وذهبتُ إلى البِركة وهزئتُ بنسائهم.. وإذ ذاك يخرجون.. بل قد يلجأونَ إلى إطلاق النار عليَّ من الاستحكامات، لأنهم جبناء.. وسيخطئونني حتماً.. وهذا ما نريدُه سيكونونَ همُ الذين بدأوا القتال.. وستكونُ الغَلَبة لنا. إن أصحابَ الأرديةِ السوداءِ الذين سيأتونَ للتحقيق لن يفعلوا أكثَر من تلطيخ الأوراقِ البيضاء!.. إنهم سيقولونَ أشياء كثيرةً لا طائلَ تحتها.. ولن ينتُجَ عن ذلك شيء!.. آه ليت الحاكمَ لم يقِفْ أمام ثانسنتيلو. إذن لَنَقَصُوا واحداً!»

كانت تتحدَّثُ بمنتهى الهدوء. وكان أورسو مشدوهاً، ينظر إليها بإعجابٍ تخالطُهُ الرَّهْبة. قال وهو يغادرُ المائدة:

« كولومبا! أيتُها الأختُ اللطيفة. أخشى أن تكوني أنتِ الشيطانَ بعَيْنِهِ! ولكن اطمئني: إذا لم أتمكَّنْ من التَّسَبُّب في شنق الباريتشينيين فسألجأُ إلى طريقة أخرى!»

فقالت وهي تتنهَّد:

« كلما كانتِ التصفيةُ أسرعَ كان ذلك أفضل!.. أيَّ جوادٍ ستركبُ غداً، يا أورس أنتون؟»

– « الأدْهم!.. ولكن لمَ هذا السؤال؟

– « لأُقدِّمَ إليه شعيراً!»

في أثناء الليل، وبعد أن نامَ أخوها شَقَّتْ أُذُنَ الحصان الأدهم؛ وهذا عند الكورسيكيين يُعَدُّ تحدِّياً وتهديداً بالقتل في آنٍ واحد. وعندما اكتشف أورسو ذلك في الصباح، لم يَشُكَّ في أن أعداءَهُ همُ الذين فعلوا ذلك.. قال:

« يا لَلجبناء الأنذال! إنهم ينتقمونَ من حيوانٍ مسكين، ولا يجرؤون على الوقوف مني وجهاً لوجه!»

وقالت كولومبا:

« ماذا تنتظر؟! إنهم يأتونَ إلى عُقْر دارِنا، فيستفزُّوننا

ويمثّلون بخيولنا، ولا نَرُدُّ عليهم بأيّ شيء؟!.. ألستم رجالاً؟!..

أجاب الرعاة صائحين:

«الثأر، الثأرَ! لنطُفْ بالحصان في القرية، ثم لنَشُنَّ هجوماً على منزلهم!»

وقال پولوغريفّو الشيخ:

«يوجد مَخْزَنٌ للحبوب ملاصقٌ لبرجهم ومُغطّى بالقشّ في وُسْعي أن أشعِلَهُ في طَرْفة عين!»

وعرض رجلٌ آخرُ أن يحملَ سلالمَ بُرج الكنيسةِ ليَصْعَدوا إلى الأعداء. واقترح ثالثٌ أن يكسروا أبوابَ الدار التي يقطنُها آل باريتشيني بواسطة عمودٍ ضَخْمٍ كان مُلْقىً في ساحة القرية.

ووسط هذه الضجّة والأصواتِ الغاضبةِ أعلنت كولومبا أنها سَتُقَدِّمُ لكلِّ واحدٍ كأساً كبيرةً من العَرَق (الأنيزيت) قبل أن يبدأوا العمل!

غير أن قَسْوةَ كولومبا على الحصان لم تُؤَدِّ إلى النتيجة التي كانت ترجوها. فقد رأى أورسو أن لجوء اورلندتشيو – لأنَّ شكّهُ كان متّجهاً إليه – إلى هذا العمل السَّخيف والسافل في نفس الوقت لا يَمحو عنه العارَ

بعد أن ضرَبَهُ هو وطلبَهُ للمبارزة. وقد زادَهُ ذلك احتقاراً لأعدائِهِ، وإيماناً بأنهم لا يستحقّون أن يجعلَهُمْ في مستواه.

وصاح أورسو في أنصاره:

«إنني أنا الذي أحكُمُ هنا، وأريدُ أن تطاعَ أوامري! وأيٌّ منكم يَخْطُرُ له أن يتحدَّثَ عن القتلِ والحرقِ فقد أُحْرِقُهُ في دوره! هيا! لِيُسْرَجِ الجوادُ الأشهب!»

قالت كولومبا وهي تنتحي بأخيها ناحية:

«كيف هذا يا أورسو! أتحتمل أن نُهان؟ في حياة والدنا لم يتجرأ آل باريتشيني على أن يشوّهوا حيواناً نملكه!»

– «إنني أعِدُكِ بأن أجعلَهُم يندَمونَ على هذه الفَعْلة! ولكنَّ من شأن الدَّرَك والسجّانين تأديبَ الأشقياء الذين لا يمارسون شجاعتهم إلا على الحيوانات الضعيفة! إنني أكرِّرُ لك أنَّ العدالةَ هي التي يجبُ أن تقتَصَّ منهم؛ وإذا لم تَفْعَلْ، فلن تكوني في حاجة إلى أن تذكري لي ابنَ من أنا!»

قالت كولومبا مُتَنَهِّدةً:

«لِيُلْهِمَنا اللهُ الصبرَ الجميل!»

واستطرد أورسو قائلاً:

« لا تنسَيْ، يا أختي، أني إذا عُدْتُ ورأيتُ أنه قد شُنَّ هجومٌ على آل باريتشيني فلن أغتفرَ لكِ ذلك! »

ثم أضاف بلهجةٍ أعذب:

« من المحتمل أن أعودَ وفي صحبتي العقيدُ وابنتُهُ. فاعملي على أن تكونَ حجرتاهما مُعَدَّتَيْن ويكونَ الغداء محترماً!.. إنه جميلٌ أن تكون المرأةُ مقدامةً، ولكنَّ عليها أن تحسِنَ إدارةَ المنزل! هيا! تعالَيْ قَبِّليني، وكوني عاقلة! »

وأصرَّت كولومبا على أن يرافقَهُ بعضُ الرجال. فاختار اثنَيْن وبدأ المسير. ولما ابتعدوا عن القرية، رأى پولوغريفو الشيخ مجموعةً من الخنازير راقدةً على ضِفَّة جَدْوَل. فما كان منه إلا أن سَدَّدَ بندقيتَهُ إليها فقَتَل أحدها، وحذا حذوَهُ الراعي الآخر، ولكن الخنازير الباقية استطاعت أن تنجو. فصاح أورسو:

« يا لكما من أبلهَيْن! انكما لتحسبانِ هذه الخنازيرَ بَرِّيَّةً وهي أليفة! »

أجاب پولو:

« كلا! يا أورس أنتون! بل إننا نعرِفُ أن هذا القطيعَ ملكٌ للمحامي؛ وقد فعَلْنا ما فعلْنا لنعلِّمَهُ كيف يشوِّهُ خيولنا! »

فصرخ أورسو مُسْتشيطاً من الغضب:

« كيف هذا، أيها الغبيَّان؟! أتريدانِ أن تقلِّدا نذالةَ أعدائنا؟ هيا اتركاني، أيُّها الشقيان! لا حاجة بي إليكما. فلستما تصلحانِ إلا لقتال الخنازير! »

١٧ . الطلقة المزدوجة

بعد أن تخلَّصَ أورسو من حاشيتِهِ العاصية تابعَ طريقَهُ، تشغلُهُ فكرةُ المتعة التي سيشعرُ بها بلقاء الآنسة نيفل أكثر مما يقلقُهُ احتمالُ مصادفة الأعداء. وقد استسلم للأحلام الجميلة والتخيُّلات حتى نسيَ نفسه. ولم يَصْحُ من ذُهوله إلا عندما توقّفَ حصانُهُ فجأةً عن المسير. ذلك أن شيلينا الصغيرة كانت تقفُ في طريقه. وقد أمسكت بزمامِهِ. قالت شيلينا:

« إلى أين أنت ماض ، يا أورس أنتون؟ ألا تدري أن عَدُوَّكَ قريبٌ منك؟!

- « عدُوِّي؟! أين عَدُوِّي؟ »

- « إن أورلندتشيو قريبٌ من هذا المكان! إنه في انتظارِك!.. عُدْ، يا أورس أنتون! »

- « آه يَنْتظرُني!.. هل رأيتهِ؟ »

- « نعم، يا أورس أنتون! كنتُ راقدةً بين النبات عندما مرّ.. فرأيتُه ينظرُ بمنظارِهِ في جميع الجهات! »

- « إلى أي ناحية كان يَتَّجه؟ »

- « إنه كان ينحدرُ من هنا، في نفسِ اتجاهكِ! »

- « شكراً! »

- « أورس أنتون! أليس من الأفضلِ أن تنتظر عمي؟! إنه لن يتأخر!.. في صحبتِهِ ستكونُ مطمئناً! »

- « لا تخافي عليَّ، يا شيلي!.. لستُ في حاجةٍ إلى عمّك! »

- « إن أحببتَ ذهبتُ أنا معك! »

- « شكراً! شكراً! »

ودفعَ أورسو حصانَهُ في الاتجاه الذي عَيَّنَتْهُ له البنت كان أوّلَ شعورٍ تولاّه هو الغضب. ولقد حَدَّثَ نفسَهُ بأن الحظَّ قد أتاح له فرصةً كبرى ليُربّي ذلك الجبان. الذي ينتقمُ من فرس لأنه تلقّى صفعة من صاحبه. ولكنَّ شِبْهَ الوَعد الذي قطعه على نفسه للحاكم، وخوفَهُ من ضَياع الفرصة لاستقبال الآنسة نيفل في منزله. كانا يعملان على تغيير خطته. ويكادان يجعلانه يتمنى ألا يقابل

أورلندتشيو .ثم يذكرُ والدَه. ويذكرُ الإهانة التي وُجِّهت إليه بشقِّ أُذُن حصانه. والتهديدَ بعدَ التهديد من قبل الباريتشينيين. فيملأ كلُّ ذلك نفسَهُ بالحنق. ويدفعُهُ إلى التفتيش عن عدوِّه، وإثارته لكي يدفعَهُ إلى التفتيش عن عدوِّه، وإثارته لكي يدفعَهُ إلى البراز.

وهكذا كان يتابع طريقَهُ، تتجاذبُهُ عواملُ متناقضة ولكنه، بعد أن نَبَّهَتْهُ الصغيرة، كان يتقدَّمُ بكل حَذَر. وهو يفحصُ كُتَلَ العَوْسجِ وأسيجة الحقول. بل إنه كان أحياناً يتوقَّفُ عن المسير منصتاً للأصوات المُبْهَمة الخفيَّة التي يسمعُها المرء في البراري.

بعد أن ترك شيلينا الصغيرةَ بعشرِ دقائق - وكانت الساعةُ تناهزُ التاسعةَ صباحاً - وجدَ أمامَهُ منحدَراً حاداً. وكانت الدَّرْبُ غيرَ واضحةِ المعالم، تمرُّ وسط « ماكي » أحرقَ حديثاً؛ ولهذا فقد كانتِ الأرضُ، في تلك الناحية. مغطّاةً بطبقة من الرَّماد المُبْيَضّ، وهنا وهنالك كانت لا تزالُ بعضُ الشُّجَيْرات وجذوعُ الأشجار الضخمة قائمةً. مع أنها فَقَدَتِ الحياة؛ وكانت سوداءَ مُعَرّاةً من الأوراق.

بَعْدَ الدَّغَلِ المحروق. كانت هناك عِدَّةُ حقولٍ مزروعة ومُسَوَّرة، حسبَ العادات. بجدرانٍ من الحجارة المتراكمة.

يبلغ ارتفاعُ الواحدِ منها نصفَ قامة. وكانتِ الدَّرْبُ تمرُّ عبر هذه الحقول، التي نبتَتْ فيها، دون نظام، أشجارٌ ضخمةٌ من البلُّوط، تبدو من بعيدٍ أشبَهَ بالغابة المُلْتفَّة.

واضطُرَّ أورسو إلى التَّرَجُّل، لكي يهبطَ ذلك المنحدَر. فترك للحصان لجامَهُ على رقبته، وراح ينحدرُ بسرعة متزحلقاً على الرَّماد. وعندما أصبح على مسافة نحو من خمسٍ وعشرينَ خطوةً من أحد الأسوار الواقعة على يمين الطريق، أبصر، في مواجهتِهِ بالضبط، فُوَّهة بندقيةٍ، ثم رأساً يرتفع شيئاً فشيئاً فوق الحائط!

ورأى أورسو رأسَ البُنْدُقيّةِ ينخفض، وعرف في الرجل أورلندتشيو، وهو يتأهَّبُ لإطلاق النار. وكلمح البصر اتَّخذ أورسو موقفَ الدفاع، فأصبح كلُّ منهما مُسَدِّداً بندقيته نحو الآخر. ولثوانيَ معدوداتٍ نظرَ كلٌّ منهما إلى صاحبه، وهو فريسةٌ لذلك الانفعال الشديد الذي يستبدُّ بأشجع الشجعان، عندما يتلقى الموتَ أو يُرسِلُهُ إلى غيره.

وصاح أورسو:

«يا لَكَ من مجرمٍ جبان!»

ولم يُكَمِّلْ كلامَهُ حتى رأى النارَ تنبعثُ من بندقية

أورلندتشيو. وفي نفس الوقت انطلقتْ رصاصةٌ ثانيةٌ عن شماله، من الناحية الأخرى للطريق.. أطلقَها رجل، لم يُبْصِرْهُ، من فوقِ سورٍ آخر.

كلتا الرصاصتَيْن أصابته.. أما الأولى، وهي رصاصة أورلندتشيو فقد اخترقت ذراعهُ اليسرى، التي كان يَعْرِضُها، وهو يُوَجِّه البندقيةَ إلى عدوِّه. وأما الثانية، فقد أصابَتْهُ في صدره، فاخترقتِ السترةَ، ولكنْ لحسن حظه، اصطدمتْ بنصلِ خَنْجرِهِ وتبسَّطَتْ عليه، وكل ما فعلتْهُ أنها أحرقتْ ظاهرَ الجلد حَرْقاً خفيفاً.

عندما اصيبتْ ذراعُ أورسو سقطَتْ على ساقِهِ دون حراك، وانخفض رأسُ بندقيتِهِ خلالَ ومضة، ولكنه سُرْعانَ ما رفعه، وسدَّدَ بندقيَّتَهُ، بيده اليمنى وحدَها، إلى أورلندتشيو وأطلق رصاصةً على رأسه، الذي لم يكن يظهَرُ إلا قليلاً، فاختفى وراء الجدار. ثم استدارَ إلى اليسار وأطلَقَ رصاصتَهُ الثانية على رَجُل كان يُحيط به الدُّخان ولا يُرى بوضوح. وقد تتالتِ الطَّلَقاتُ الأربعُ بسرعةٍ لا يُمكن تصوُّرها. ولعلَّهُ لم يَحْدُثْ لأكثرِ الجنودِ مراناً أن أطلقوا رَصاصاً مُتتَابعاً بهذا التقارُب.

بعد الطَّلْقةِ الأخيرةِ عاد الصَّمتُ يخيِّمُ على كلِّ شيء. وكانَ الدُّخانُ الذي خرجَ من بُنْدُقيَّتِهِ يتصاعدُ ببطءٍ نحو

السماء. ولم تكنْ تُسْمَعُ أيُّ حركة وراءَ الجدار. ولولا الألم الذي كان يشعرُ به في ذراعه لاعتقدَ أن ذَيْنِكَ الرَّجُلَيْن اللَّذَيْن أطلَقَ عليهما رصاصَهُ، لم يكونا سوى طيفَيْن من صُنع خياله.

ولما كانَ يتوقَّعُ أنْ يُطْلَقَ عليه الرّصاصُ مرَّةً أخرى، فقد خطا بضْعَ خُطْواتٍ، حتى أصبحَ وراء شجرةٍ من مخلفات الحريق. في حماية هذه الشجرةِ جلس يحشو بندقيَّتَهُ بسرعة، واضعاً إياها بين ساقَيْه. وكانت ذراعُهُ المصابةُ تُؤْلِمُهُ أشدَّ الألم، حتى ليُخيَّلُ إليه أنَّه يَرْفَعُ حملاً بالغَ الثِّقَل.

ماذا حلَّ بخَصْمَيْه؟ لم يكن قادراً على فهْم ذلك! لو أنهما هَرَبا أو جُرحا لكان سمع صوتاً أو حركةً بين الأغصان! هل ماتا؟ أو انهما ما زالا ينتظران وراء الحائط فرصةً ملائمةً لكي يُعيدا الكرَّة، ويُطلقا عليه الرَّصاص. ولما كان يَشْعُرُ بأن قواهُ تخورُ شيئاً فشيئاً، فقد وَضَعَ رُكْبَتَهُ اليمنى على الأرض وأراحَ ذراعَهُ المصابةَ على الرُّكبةِ اليسرى، وأسند بندقيَّتَهُ إلى فرعٍ من فروعِ الشَّجرة، على مُسْتَوَى وَجْهِهِ، ولبثَ على هذا الوضع ساكناً ينظر إلى الجدار، مُتَنَبِّهاً لكلّ حركةٍ وإصبعُهُ على زناد البندقيَّة.

ومرَّتْ على ذلك دقائقُ بَدَتْ له كأنها قَرْنٌ من الزمان.

وأخيراً سمع صوتاً. جِدَّ بعيد، صادراً من الوراء. ولم تَمْضِ على ذلك لَحَظاتٌ حتى هبط كَلْبٌ من ذلك المرتفعِ بسرعة السَّهم، وجاء يقفُ أمامَهُ وهو يحرِّكُ ذيلَهُ. كان ذلك الكلبُ هو بروسكو، تلميذَ اللِّصَّيْن ورفيقَهُما.. أقبلَ يعلن، على أكبر الظن، مجيء سيِّده، الذي كان أورسو ينتظرُهُ بصبرٍ فارغ.

أخذ الكلبُ يَشُمُّ بقلَق، وخَطْمُهُ في الهواء من ناحية الحقل القريب. وفجأةً جعل يُهَمْهِم. وبقفزةٍ تخطَّى الحائطَ، ثم ما لبثَ أن رجَعَ فوقَفَ فوقَهُ وهو ينظرُ إلى أورسو، معبِّراً عن الدَّهَش كأقصى ما يستطيعُ كلبٌ أن يفعل.

وعاد يرفعُ خَطْمَهُ مرةً أخرى من ناحيةِ الحقلِ الثاني. وسُرْعانَ ما قفز من فوق سُورِه. ولم تمضِ ثانيةٌ حتى ظهر ثانيةً، وهو يُعَبِّرُ عن نفس القلق. ومن ثَمَّ سار مبتعداً عن أورسو بخطىً وئيدة، وهو ينظرُ إليه عن جانب وذنبُهُ بين ساقَيْه.. وما إن أصبحَ على بعضِ المسافة حتى انطَلَقَ كالشِّهاب، وصَعَدَ المنحدَرَ بنفس السُّرعة التي هبط بها، واستقبل رجلاً كان يتقدَّم مُسْرعاً برغم الانحدار الشديد.

وصاح به أورسو عندما قدَّر أن صوتَهُ يَصِلُ إليه:

« إليَّ، يا براندو! »

وجرى إليه براندولاتشيو؛ ولما اقتربَ منه سألَهُ وهو يلهَث:

«أوه، أورس أنتون! هل أنت جريح؟ أين، في الجسد أم الاطراف؟»

- «في ذراعي!»

- «ذراعك؟.. لا بأس!.. والآخَر؟»

- «أعتقد أنني أصبته!»

وجرى براندولاتشيو وراءَ كَلْبه إلى الحقل القريب، وأطلَّ من فوق الحاجز. ثم اعتدلَ وقال، وهو يَرْفَعُ قَلَنْسُوَته:

«على السيد اورلندتشيو السلام!»

ثم استدار إلى ناحية أورسو وانحنى له وقال:

«هكذا يكونُ في رأيي الرَّجُلُ المتكيِّف كما ينبغي!»

وسأله أورسو وهو يتنفّس بجهد:

«أهُوَ لا يزال حياً؟»

- «معاذَ الله!.. إنه سحترسُ من الحياة! لقد آلَمْتَهُ جداً بالرصاصةِ التي وَضعْتَها في عينه! يا لَدَمِ العَذْراء! ما أعظَمَهُ من ثُقب! إنها لَعَمْري بُنْدُقيّةٌ عظيمة!.. يا لَهُ من

عِيار!.. تستطيعُ أن تسحقَ به دماغاً! أتدري، يا أورس أنتون؟ عندما سمعْتُ في أول الأمر: پيف، پيف قلت: يا للشيطان، إنهم يغتالون الملازم! ثم سمعت: بوم، بوم! قلت: آه، ها هي البندقيَّةِ الانكليزيةِ تتكلم!.. إنها تَرُدّ!.. ولكن.. ما بك يا بروسكو؟ ماذا تريد مني؟»

وقاده الكلب إلى ناحية الحقل الآخر. فصاح مشدوهاً:

«عَفْوَك! إنها طَلْقةٌ مزدوجةٌ! لا شيء غير هذا! يا لَلطّاعون! ظاهرٌ تماماً أن البارودَ غالي الثمن، لأنك تقتصدُ به!»

قال أورسو:

«بالله ماذا هناك؟»

- «دَعْكَ من هذه الحِيَل، يا سيدي الملازم! إنك ترمي الطريدةَ وتريدُ أن يلتقطوها لك!.. هناك رجلٌ سيأكلُ أكلةً غريبةً هذا اليوم: ذاك هو المحامي باريتشيني! لحم! لحم! كثير!..

يا لَلشَّيطان.. من سيكونُ الوريثَ الآن؟»

- «ماذا ڤانسنتيلو؟.. ميت أيضاً؟»

- «ميت جداً!! البقيةُ في حياتنا!.. الشيء الجميل

فيك أنك لم تَدَعْهُما يتألمان! تعالَ انظُرْ ڤانسنتيلو.. إنه لا يزال راكعاً على ركبتَيْه ورأسُهُ مستندٌ إلى الحائط!.. يبدو كأنَّهُ نائم!.. إنه يُطبِّق المَثَل: نوم الرصاص!.. مسكين!»

فأدار أورسو رأسَهُ متألماً وسأل بمرارة:

«هل أنت واثقٌ من أنَّهُ مات؟»

– «إنك مثل سامبيرو كورسو، الذي لم يكُنْ يُطلِقُ سوى طَلْقةٍ واحدة! أنظُرْ: هنا.. في الصَّدْر إلى اليَسار!.. أراهنُ أنَّ الرَّصاصةَ ليست بعيدةً عن القلب! طَلْقَةٌ مُزْدَوجة!.. آه! إنني سأُحَرِّمُ على نفسي إطلاقَ الرَّصاص: إثنان برصاصتَيْن!.. الأخوان!.. لو كانت للبُندقيَّة رصاصةٌ ثالثةٌ لجئتَ بأجَل الأب!.. المرة القادمة تصنعُ أفضلَ من هذا!.. يا لَها من طَلْقة، يا أورس أنتون! كيف لا يتمكَّنُ فتىً شجاعٌ مثلي من أن يُوفَّقَ في طَلْقةٍ مُزْدَوجة مع الدَّرك؟»

كان اللّصُ يتحدَّثُ على هذا النحو بينما هو يفحَصُ ذراعَ أورسو؛ ثم صاح:

«ما هذا؟ ماذا أرى؟ ثقب على الصدر؟! كلا! لم يَدخل هنا شيء.. وإلاّ لما كنتُ بهذه القوة!.. حاوِلْ أن تحرِّكَ أصابعَك!.. هل تشعرُ بشيء وأنا أعضُّ خِنصرَك؟..

ليس كثيراً؟.. لا بأس!.. ليس في الأمر ما يُقلِق!.. دعني آخذُ منديلَكَ ورباطَ عنُقك!.. بالله لمَ رتَّبْتَ نفسَك على هذا الشكل؟.. هل كنتَ ذاهباً إلى العُرس؟.. خذِ اشربْ جرعةً من الخمر!.. لماذا لا تحملُ مطَرة؟ هل يَخرجُ كورسيكيّ دون مطَرَتِه؟!»

وراح يضمِّدُ لهُ جرحه. ومن لحظةٍ إلى أخرى كان يتوقّف ليُبديَ دَهشه:

«طلقة مزدوجة!.. كِلا الأخوَيْن مَيْتٌ متخشِّب!.. كم سَيَضْحَكُ الكاهن! آه! ها هي أخيراً تلك السُّلْحفاة شيلينا!»

ولم يكن أورسو يَرُدُّ عليه بشيء. كان وَجْهُهُ يُرْهِقُهُ شحوبٌ كشحوب الموت؛وكانت أوصالُهُ ترتعد. وصاح براندولاتشيو:

«شيلي! إذهبي فانظري وراء الجدار، ماذا ترين؟!»

وتسلّقَتِ البنتُ الحائطَ. وما إن رأتْ أورلندتشيو حتى رَسَمَت علامة الصليب. واستطرَدَ اللصُّ قائلاً:

«ليس هذا بالشيءِ الكثير!.. إذهبي إلى هناك!»

ورسمَتِ الصبيَّةُ علامةَ الصليب مرَّةً أخرى، وسألَتْهُ بحياء:

«أأنت فَعَلْتَ هذا، يا عمي؟»

– «أنا؟! ألم أصبح أنا عديمَ الفائدة؟!.. شيلي هذا صنيعُ السيِّد! هَنِّئيه!»

فقالت شيلينا:

«ستفرحُ الآنسة كثيراً، ولكنها ستنزعجُ لأنك جُرِحْت، يا أورسو أنتون!»

قال اللص:

«هيّا، يا أورس أنتون! ها هيَ شيلينا قد أمسكت فرسك.. إركَبْ وتعالَ معي إلى دَغَل ستازّانو، والحاذقُ من يستطيع أن يعرِف مكانك.. سنعالجُك على قَدْرِ استطاعتنا!.. عندما نصلُ إلى صليب القدِّيسةِ كريستين يجبُ أن تترَجَّل، وتسيرَ على قدمَيْك؛ وستتولّى شيلينا إعادةَ الحصان إلى المنزل وإخبارَ الآنسة! والآن في الطريق يمكنُ لك أن تُوصيها بما يجبُ أن تقومَ به! تستطيع أن تقولَ كلَّ شيء للصغيرة، يا أورس أنتون، فهي لا تخونُ أصدقاءها ولو قُطِّعت تقطيعاً!»

وسأل أورسو بصوتٍ ضعيف:

«إلى أين تقودُني، يا براندو؟»

– «عجيب! إخترْ بين الذّهاب إلى السِّجن أو

الذهاب إلى الماكي!»

قال الجريحُ بمرارة وألم:

«وداعاً، أيتها الآمال!»

– «يا لَلشّيطان! ما هي هذه الآمال؟! هل كنتَ تحلُمُ بأن تفعَلَ أكثرَ مما فعَلْتَ ببندقيّةٍ ذاتِ طَلْقَتَيْن؟»

وقال اللصُّ لأورسو، وهو يُمسك عِنان فرسه:

«إسمع، يا أورس أنتون! أتريد أن أتكلّم معكَ بصراحة؟ أنا لا أريدُ أن أجرَحَكَ، ولكنني حزينٌ على هذين الشابين! لا تؤاخذني! إنهما في غاية الجمال والقوّة.. وفي رَيْعان الشباب!.. كم مرة ذهبتُ مع أولندتشيو إلى الصيد! ومنذ أيام أعطاني علبة سجائر! وفانسنتيلو؟! إنه شابٌّ مرحٌ لطيف، لا تراهُ إلا باسماً! صحيحٌ أنك فعلْتَ ما كان يجبُ عليكَ أن تفعل.. ثم إن الطلقة جميلة إلى حدّ أنه لا يجبُ الندم عليها.. ولكنني لم أشترِكْ في ثأرك! أنا أعلم أن الحقَّ بجانبك، إذ أن على الانسان أن يتخلّصَ من أعدائه.. ولكنَّ آل باريتشيني أسرةٌ عريقة.. لقد قُضِيَ عليها الآن.. وبطلْقة مزدوِجة!.. إنه لأمرٌ مؤثِّر!»

هكذا رثى براندولاتشيو قتيلي آل باريتشيني، بينما كان يقودُ بسرعة أورسو وشيلينا والكلبَ بروسكو إلى دَغَلِ ستازّانو.

١٨ . حضور الدولة

لم يَمْضِ على مسير أورسو سوى القليل حتى عرفتْ كولومبا بواسطة جواسيسها أن الأخوين باريتشيني كانا ملازمَيْن الحقول. ومنذ تلك اللحظة لم يَقرّ لها قرار. وظلّتْ فريسةً لقلق عظيم، تطوفُ في المنزل؛ مُقْبِلَةً مُدْبِرَةً. تارةً تَدخلُ المطبخ، وأخرى حجرة النوم المُعدَّةَ للضيوف. وهي لا تصنعُ شيئاً، ومع هذا تبدو في غاية الانهاك.

في نحو الساعةِ الحاديةَ عَشْرَةَ دخلت بيترانرا مجموعةٌ من الفرسان، مؤلّفةٌ من العقيد الانكليزيّ وابنتِهِ وخَدَمِهِ ودليلِهم. وكانت أول كلمة استقبلت بها كولومبا ضيوفَها هي:

« هل رأيتم أخي؟ »

ثم سألت الدليلَ عن الطريق التي سلكوها، وفي أيِّ ساعةٍ بدأوا المسير. وحسبَ إجاباتِهِ لم تستطعْ أن تَفْهَمَ لِمَ لم يتلاقَوْا معاً. وبالرَّغم من رزانتِها الطبيعية، التي كانت تضاعفُها رغبتُها في إخفاء ضَعفها أمام هؤلاء الأغراب، فإنها عجزَتْ عن كتمان قلقها الشديد، فلم تلبثْ أن أشركَتْ فيه العقيدَ، والآنسة ليديا خاصةً؛ فحدَّثَتْهما عن محاولة الصلح التي فشلَتْ، وأدَّتْ إلى نتيجةٍ سيئة.

واضطربتِ الآنسةُ نيفل غايةَ الاضطراب، وعَرَضَ والدُها أن يركبَ هو والدليل ويذهبا للتفتيش عنه. وقال محاولاً التخفيفَ من هواجس كولومبا:

« إنني أراهن أن ديلاريبيا قد وَجَدَ صيداً في طريقه فلم يستطع مقاومة الاغراء! »

ثم أضاف:

« يا لله! إننا سمعنا في طريقنا أربعَ طَلَقات.. كانت اثنتان منها أقوى من الأُخْرَيَيْن؛ فقلت لابنتي: أراهنُ على أن ديلاريبيا يصطاد! لا بندقيةَ تُحْدث مثل هذا الدوي سوى بندقيتي! »

وسألتْ كولومبا، وقد شحُبَ لونها، مما لم يَخْفَ على ليديا: عما إذا كانت الطلقتانِ القويتانِ قد سبقتا أو تَلَتا الضّعيفتين؛ ولكنْ لا العقيدُ ولا ابنتُهُ ولا الدليلُ انتبهوا إلى هذه النقطة الأساسية.

ولما بلغتِ الساعةُ الواحدةَ إلا ربعاً ولم يَعُدْ أيٌّ من الرجال الذين أرسلتهم كولومبا للبحث، جَمَعَتْ شَتاتَ قوّتها ودعَتْ ضيوفَها إلى المائدة؛ ولكنَّ أحداً منهم لم يُقبِلْ على الأكل، فيما عدا العقيد.

وفجأةً سُمِعَ صوتُ حصانٍ يجري. فنهضت كولومبا

بسرعة إلى النافذة. وما أن رأتْ شيلينا على فرس أورسو حتى صَرَخَتْ بصوت يقطّع نياط القلوب:

« قُتل أخي! »

فسقطت الكأسُ من يد العقيد. وانطلقَتْ صرخةٌ من ليديا، وَهَبَّ الجميع يَجْرُونَ إلى الباب. وقبل أن تتمكّنَ شيلينا من القَفْزِ حَمَلَتْها كولومبا كالرِّيشة، وأخذت تعصرُها حتى كادتْ تكتمُ أنفاسَها فصاحت الصبيّة باختصار:

« إنه حيٌّ! »

ففكّت كولومبا ذراعَيْها عنها. فهبطت الصغيرةُ بخفّةِ القطة. وسألتْها بصوتٍ أبحّ:

« والآخرون؟ »

فرسمت شيلينا بإبهامها وإصبعها الوسطى علامةَ الصَليب. وفي الحالِ تبدّلَ لَوْنُ كولومبا بَعْدَ شحوب، ورَمَتْ نظرةً متّقِدةً نحو منزلِ باريتشيني ثم قالت لضيفَيْها، وهي تبتسم:

« هيا بنا نتناولُ القهوة! »

بعد ذلك انهمكت كولومبا وليديا في خياطة الأربطةِ والضّمادات وكانت ليديا لا تفتأ تبكي.

وكان النهارُ قد تقدَّمَ كثيراً عندما دخلَ القريةَ موكبٌ يخيِّمُ عليه الحزنُ والرَّهبة: فقد كان يحملُ إلى المحامي باريتشيني جثتَيْ ولدَيْه، وقد وُضِعَتْ كلُّ منهما على ظهر بغلة يقودها فلاح. وكانت تتبعُ الموكبَ طائفةٌ من الأنصار والمتبطِّلين، ورجال الدرك، ومعهم نائبُ العمدة، الذي كان لا يكفُّ عن رفع يَدَيْهِ إلى السماء في حَيرة وارتباك، مردِّداً:

« ماذا سيقولُ سيادة الحاكم؟! »

وكانت بعضُ النسوة، وفيهنَّ مُرْضعةُ أورلندتشيو، يَشدُدْن شعورَهُنَّ ويُوَلْوِلْنَ بصورة همجية. ولكنَّ حزنَهُنَّ الصارخَ كان يُحدثُ من التأثير أقلَّ بكثيرٍ من الحزن الصامت العميق، الذي كان يظهرُ على شخص اتجهت إليه كافة الأبصار: إنه الوالد المفجوع، الذي كان يتنقَّل من جثة إلى أخرى، ليسند رأسَها الملطّخ بالطين، ويقبِّل شفتَيْها البنفسجيَّتَين، ويُمْسك أطرافَها المتخشِّبَة كأنه يخشَى عليها من الارتجاج.

وتضاعف صراخُ النساء ولَعَناتُ الرجال عندما ظَهَرَ للموكب منزلُ أورسو. ولما تجرَّأ عدد من الرعاة الموالين لديلاريبيا على إطلاق بعض هُتافات النصر، لم يضبطِ الخصومُ أعصابَهم وارتفعتْ عدةُ أصوات صائحة:

« الثأر، الثأر! »

وقذفوا بعضَ الحجارة على المنزل، بل أطلقَتْ طلقتان من إحدى البنادق على الحُجرة التي كانت فيها كولومبا مع ضيوفها؛ فاخترقتا مصاريع نوافذها، وأطارتا شظايا من الخشب سقطت على المنضدة التي كانت تجلس قربها الفتاتان.

فأطلقت ليديا صَرَخَاتِ الرُّعب، وتناول العقيدُ بندقيتَهُ؛ ولكنَّ كولومبا اندفعَتْ نحو باب المنزل قبل أن يتمكنَ العقيد من ردِّها، ففتَحَتْهُ بعنف، ووقفت على عَتَبَتِهِ رافعةً ذراعَيْها لتصبَّ اللّعَناتِ على رؤوس أعدائها، صاحت:

« يا لكم من جبناء! أتطلقون رصاصكم على النساء والأغراب؟! حاشا أن تكونوا كورسيكيين! حاشا أن تكونوا رجالاً! تقدَّموا أيها المجرمون، يا من لا يُحسنون إلا القتل من الوراء! تقدّموا! إني أتحدّاكم! إنني وحيدةٌ وأخي بعيد! أقتلوني، واقتلوا ضيوفي! هذا ما أنتمْ به جديرون! ولكنكم لَنْ تجرؤوا، أيها الجبناء، لأنكم تعرِفون أننـــا ننتقمُ لأنفسنــا!.. إذهبوا وانتحبوا كالنساء!.. واشكرونا لأننا لم نطلبْ مَزيداً من الدم! »

كان في صوت كولومبا ووقفتها شيءٌ مُهَيْمنٌ ومخيف. فما إن رآها ذلك الجمعُ المعادي حتى تراجعَ في ما يُشبه الرعب، كأنما رأى فيها صورةَ تلك الجنّيات الشريرةِ الرهيبة، التي تتحدَّث عنها الأساطيرُ الكورسيكية، ويتناقل الناس حكاياتِها المفزعةَ في سَهَرات الشتاء.

وأسرع وكيلُ العمدة والدرك وبعضُ النساء فوقفوا بين الفريقين، لأنَّ الرعيان الريبيانيين كانوا قد هيأوا سلاحهم وخُشي، في لحظةٍ من اللحظات، أن تقعَ معركةٌ عامة في القرية. غير أن كلا الفريقين كان بدون قائده؛ والكورسيكيون، وهم قومٌ منظّمون في المُلمّات، قلّما يشتبكون في غِياب المسؤولين الأساسيين عن نزاعهمُ الداخليّ. على أيّ حال فإن كولومبا، وقد أعادَها هذا النجاح إلى جادّةِ الصواب والحذر، هدّأت من ثائرة الحامية الصغيرة التي تحيط بها، قائلة:

« دعوا هؤلاء المساكين يبكون، وهذا الشيخ يحتفظُ بلحمه؛ فما الفائدةُ من قتل ثعلب عجوز لم يَبْقَ لديه أنيابٌ ينهش بها ويُدْمي!.. جيودتشي باريتشيني! أذكرْ تاريخ الثاني من آب! أذكرِ المفكرةَ الدامية التي كتبتَ فيها بيدك المتعوِّدةِ على التزوير! لقد سجَّلَ فيها والدي دينَهُ عليك،

وها قد سدَّدَهُ ولداك! وإني لأُبرّىء الآن منه ذِمَّتَك، أيها العجوز!»

ووقفَتْ كولومبا، وهي مشبَّكَةُ الذراعين وعلى فمها ابتسامةُ الاحتقار، تشهَدُ ذلك الموكبَ يمضي بالقتيلَيْن إلى منزلِ أعدائها، ثم يتفرَّق هنا وهناك. ومن ثَمَّ أغلقَتْ بابَها، وعادَتْ إلى حجرةِ الطعامِ حيث كان العقيدُ وابنته..

قالت له:

«إنني أعتذرُ إليك، يا سيدي، عمّا بَدَرَ من أهل قريتي! فإنه لم يخطُرْ لي قطُّ أن يَعْمدَ كورسيكيون إلى إطلاق النار على منزلٍ فيه أغراب. وإني لجدُّ خجلةٍ أن تحملَ هذه الفكرةَ عن بلادي!»

في المساء، عندما انفردَتْ ليديا في الحجرة المُعَدَّة لها، تبعَها والدُها، وسألها إن كانت توافقُ على الرحيل، والإسراع في مغادرة بلادٍ ليس فيها سوى الغَدْر والاغتيال. وقد أوقعَها اقتراحُهُ في حَيْرة، فقالت بعد صمت:

«كيف نستطيعُ أن نترُك هذه الفتاةَ المسكينةَ في وقتٍ هي أحوجُ ما تكونُ فيه إلى مواساتنا؟!»

– «إنني أفكِّر فيك، يا بنيتي! أؤكِّدُ أنني لو كنت أعلمُ أن في استطاعتي أن أطمئنَّ عليك في فندق أجاكسيو،

لما رحلْتُ عن هذه الجزيرة اللّعينة قبل أن أحيِّي ذلك الفتى الشجاع ديلاريبيا!».

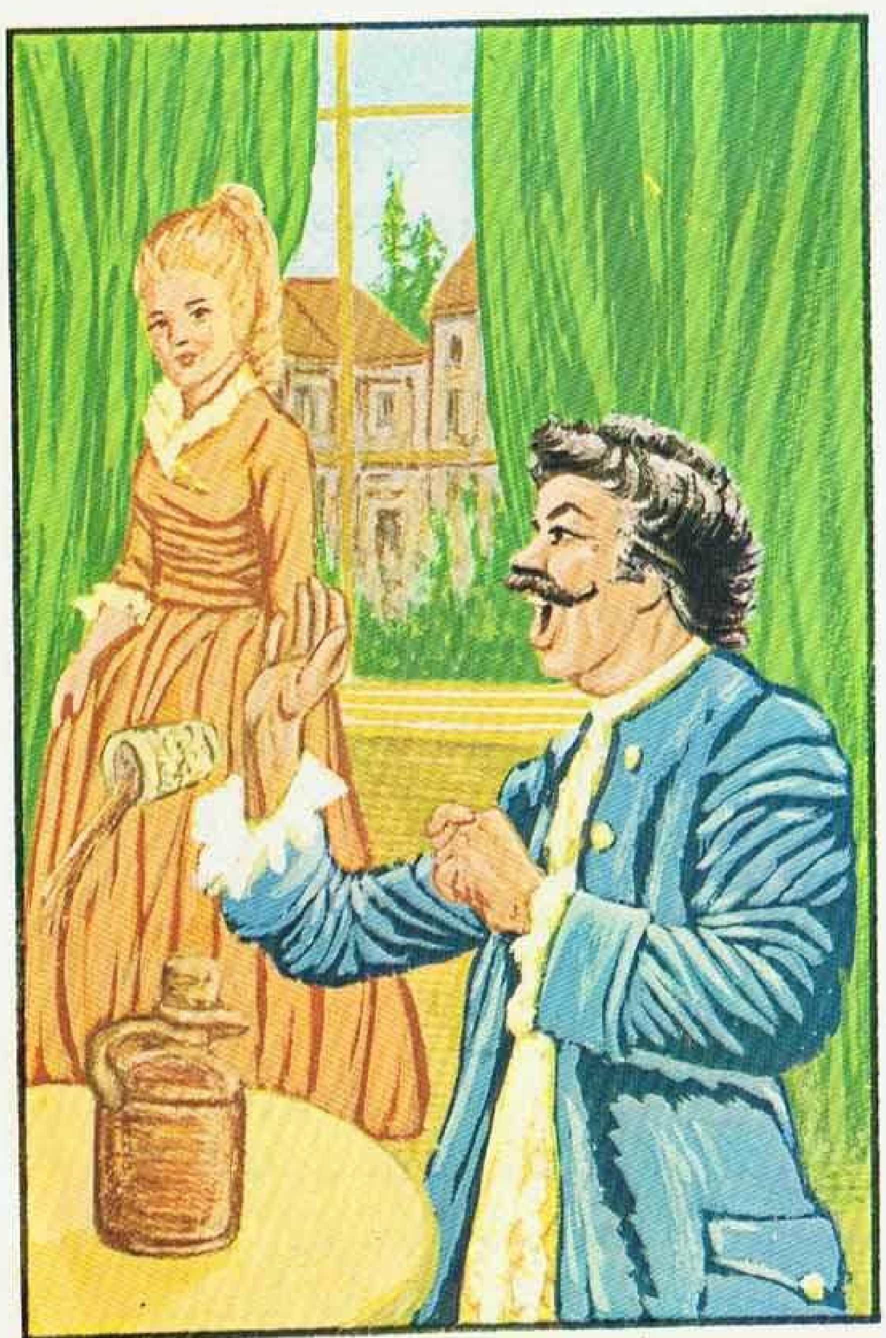
– «إذن لننتظِرْ قليلاً، يا والدي، ريثما نتأكدُ من أن بقاءَنا لا يفيدُهم في شيء!»

وقَضَتْ ليديا ليلةً مؤرَّقةً، تتجاذَبُها فيها شتَّى العواطف، من الخوف الذي يملأ ذلك الجوّ، إلى الخوف على حياة أورسو، الذي كانت تتخيَّلُهُ غارقاً في دمائه، ممدَّداً على الأرض الباردة، وليس له من مُعين سوى ذلك اللص. وقد رأت صورتَهُ، بملابس الملازم، معلّقةً على الحائط، فأنزلتها ووضعتها إلى جانبها على المنضدة.

وفي الصباح جاءتها كولومبا، فرأتِ الصورة، فخجلتْ ليديا وحاولت أن تعتذر.. قالت متلعثمةً:

«يا آلهي!.. أخذت هذه الصورة.. دون قصد!.. علّني أنني أمُدّ يدي إلى كل شيء، ولا أعيدُ الأشياء إلى أماكنِها!.. خبريني، كيف أخوك؟»

– «إنه في صحةٍ جيدة! لقد جاء جيوكنتو قبل الساعة الرابعة من هذا الصباح، وهو يحملُ رسالةً منه!.. إنَّها موجَّهةٌ إليكِ!.. أما أنا فلم يكتب إليّ.. الأَخَوات لا يَشْعُرْنَ بالغَيْرة! أخبرني جيوكنتو بأن أورسو بذل جهداً كبيراً في كتابة هذه الرسالة!»



٤ - فسقطت الكأس من يد العقيد

قال أورسو في رسالتِهِ المكتوبة بالانكليزية:

«لقد كنتُ مدفوعاً بقدَرْ ظالمٍ، فيا فعلت! لست أدري ما سيقول عني الأعداء، وأيَّ الافتراءات سيبتدعون! ولكنني لن أهتمَّ بكل ذلك، ما دمتِ أنت لا تؤمنين به!.. منذ أن رأيتُكِ للمرة الأولى وأنا أعلِّل النفسَ بآمالٍ لا صوابَ فيها ولا تفكير! ولقد أوضحت لي هذه الكارثةُ جنوني.. فأنا اليوم عاقل: إنني أعلم، عِلْمَ اليقين، أيَّ مستقبل ينتظرني.. ولسوف أتحمَّلُهُ بكل صبر!.. هذا الخاتمُ الذي أعطيتِنيه، والذي كنتُ أرى فيه طِلَّسْمَ سعادة، لم أعد أجرؤُ على الاحتفاظ به! فأنا أخشى، يا مس نيقل، أن تكوني قد ندمْتِ، لأنك وضعتِ عطاياك حيث لا يجبُ أن توضع! بل إنني لأخشى بالأحرى، أن يذكّرني هذا الخاتمُ بالوقت الذي كنت فيه مجنوناً! ستعيدُ إليك كولومبا الخاتم! وَداعاً، يا آنستي! ستغادرينَ كورسيكا، ولن أراكِ بعدَ اليوم! ولكنْ قولي لأختي إن كنتِ لا تزالين تُكنّين لي بعض الاحترام! أما أنا فأعلِنُ صادقاً أنني لا أزالُ جديراً به!»

وصل الحاكمُ إلى بيترانرا، التي امتلأت بجنوده. وبعد وصولهِ بقليلٍ اجتمعَ بالعقيد الانكليزي وابنتِهِ، ولم يكتُمْ عنهما خوفَهُ من أن تتخذ القضيَّة طابعاً خطيراً.. قال:

« إنكما تعلمان أنَّ المعركةَ حَدَثَتْ دونَ وجود شهود. وأن حِذْقَ القتيلَيْن في الرماية وشجاعتهما معروفان وثابتان إلى درجة أن الجميعَ لا يؤمنون بأن السيد ديلاريبيا قد تمكّن من قتلهما دون مساعدةِ اللِّصَّيْن اللّذَيْن يلتجىء إليهما الآن! »

قال العقيد:

« هذا أمرٌ مستحيل! فإن أورسو ديلاريبيا شابٌّ كلُّهُ إباء وأنا كفيلٌ بذلك! »

– « وأنا أيضاً مؤمنٌ بهذا؛ ولكنَّ موقفَ النائب العامِّ ليس على ما يبدو، في صالح ديلاريبيا. فبَيْنَ يدَيْهِ مُسْتَنَدٌ سيِّئٌ بالنسبة إلى صديقك: إنه رسالة تهديدٍ منه إلى أورلندتشيو، يُحَدِّدُ له فيها موعداً للمبارزة.. والنائبُ العامّ يتخيَّلُ أن هذا الموعد عبارةٌ عن كمين! »

– « إن أورلندتشيو هذا قد رفض النزال كرجل شريف! »

– « ليست المبارزة من عادات هذه البلاد! فالطريقة هنا أن يكمَن الواحدُ للآخر ويقتلَهُ من الخلف. لقد استمَعْنا إلى شهادة بنتٍ صغيرةٍ أكدت فيها أنها سَمِعَتْ أربعَ طلقات. صدرت الأخيرتان منها عن بندقيةٍ ذات

عيار كبير مثل بندقة السيد ديلاريبيا. ولكنْ لسوء الحظّ، هـذه الصبية هي ابنة أخي أحدِ اللصّين المتّهمَيْن بالاشتراك في المؤامرة! والمعتقدُ أنها لُقِّنَتْ هذه الشهادة تلقيناً...»

فقاطعَتْهُ الآنسة ليديا قائلةً، وقد اصطبغَ وَجْهُهَا بالحمرة:

« سيدي! لقد كنا في الطريق عندما أطلقَتِ الطلقاتُ الأربع، وقد سمعنا نفس الشيء!

- « حقاً؟...إن هذا لأمرٌ هامّ! وأنت، يا سيدي، العقيد هل لاحظت ذلك؟ »

فأسرعت ليديا تَرُدُّ قائلة:

« نعم! إنّ الذي لاحظَ هو أبي! وهو ذو خبرةٍ عظيمةٍ في الأسلحة! فقد قال عندما سمع الطلقتين الأخيرتين: ها هوَ السيد ديلاربيا يُطلق ببندقيتي!»

- « هل تؤكد أن هاتين الطلقتين صدرتا في الآخر؟ »

لم تكن ذاكرةُ العقيد قوية، ولكنه، في جميع الأحوال، كان لا يعارضُ كلامَ ابنته. قال الحاكم:

« يجب أن يقال هذا للنائب العام في التّوّ!.. على أيّ

حال نحن ننتظر وصولَ جرّاحٍ هذا المساء، للكشف على الجثتين، والتأكد مما إذا كان الجرحانِ قد حدَثا فعلاً بواسطة البندقية المذكورة!»

قال العقيد:

« إني أنا الذي أعطيتُها إلى أورسو، وفي وُسْعي أن أعرفَها، ولو كانت في قاع البحر. أعني.. يا للفتى الشجاع! إني لسعيدٌ لأنها كانت معه.. فلست أدري كيف كان سيتخلّصُ من ذلك المأزق لو لم تكن في حَوْزَتِه!»

١٩. فتاة انكليزية في الماكي

وصل الجرّاح متأخراً بعضَ الوقت، لأنه تعرَّضَ لمغامرة في أثناء الطريق: فقد قابلَهُ جيوكنتو كاستركوني، وهدَّدَهُ « بكل أدب». طالباً إليه أن يَصْحَبَهُ لإسعاف رجلٍ جريح.

واقتِيدَ الطبيبُ إلى جانب أورسو حيث وضعَ له أوّلَ ضمادٍ على جُرْحه. ومن ثم سار به اللصُّ بعيداً عن ذلك المكان. وفي الطريق تحدَّث إليه طويلاً عن أشهر الأساتذة في بيزا، مؤكداً أنهم جميعاً من أصدقائه الخُلّص. وبذلك زوَّدَهُ بالمعلومات الكافية الوافية عن علمه الوفير! وقال اللاهوتيُّ للطبيب وهو يفارقُهُ:

«لقد ملأتَ نفسي، يا سيدي الطبيب، بالاحترام لك والتقدير، إلى حد أنني لا أرى ضرورةً لتذكيرك بأنَّ على الطبيب أن يكونَ كَتُوماً كالمعرِّف سَواء بسَواء. إنك نسيتَ المكانَ الذي حصل لنا شرفُ لقائك فيه!! وداعاً! إنني سعيدٌ بمعرفتك!»

كان يقولُ ذلك وهو يداعبُ بندقيَّتَهُ ويحرِّكها.

وتوسَّلَتْ كولومبا إلى العقيد أن يَشْهَدَ فحصَ الجثتين، وقالت:

«إنك تَعْرِفُ بُندقية أخي أكثر من أيِّ شخصٍ آخر؛ ولهذا فإن وجودكَ سيكونُ ذا فائدةٍ كبيرة! إن في قريتنا كثيراً من الناس الأردياء، مما يجعلُنا في خَطَرٍ بالغ، إذا لم يكن هناكَ من يدافعُ عن مصالحنا!»

وعندما أصبحت وَحْدَها مع ليديا، ادَّعَتْ أنَّها مُصابةٌ بصُداعٍ شديد؛ وعَرَضَتْ على ضيفتِها أن تَخرجا معاً، لعلَّ الهواءَ الطَّلْقَ يُريحُ رأسَها.

بهذه الحيلة أخذَتْها إلى الماكي[1] حيث كان أخوها، وادَّعَتْ أن خروجَها بمفردها كان سيَلْفِتُ إليها الأنظار، فيتبعُها رجالُ الدَّرَك ويقبضون على أورسو.

---

١) الماكي: دغل أو «غابة» يختبىء فيه الهاربون.

وهكذا جمعت بين الاثنين، فاعترفَ كلٌّ منهما بحبِّهِ للآخر، بعد أن كان حياءُ ليديا يمنعُها من أن تبوحَ بما تُكِنُّهُ للملازم ديلاريبيا.

وبينما كانت كولومبا تضعُ رأسَ أخيها الجريحِ في حُجْرِها وبجانبها ليديا سمعتِ الكلبَ بروسكو ينخر، ورأتْ براندولاتشيو يجري وراءه. فخفَّتْ إلى ناحيةِ اللِّصَّيْن، بعد أن وَضَعَتْ رأسَ أخيها في حُجْرِ ليديا.

ولم يَمْضِ بعضُ الوقت حتى عادَتْ مُضْطَرِبةً، وقالت:

«القنَّاصة!.. حاولْ، يا أورسو، أن تنهَضَ وتسير!.. سأساعدُك أنا!»

– «أتركيني هنا، وقولي للِّصَّيْن أن يهربا! أريدُ أن يُلْقُوا القبضَ عليَّ فلن أحفلَ بهذا بعد الآن!.. ولكنْ باللهِ خذي الآنسة ليديا!.. لا تدعي أحداً يراها هنا!»

قال براندولاتشيو، الذي كان يتبع كولومبا:

«كلا!.. لن أتركَكَ، فإن جاويش القنّاصة هو «فليون» المحامي وهو لن يقبضَ عليك، بل سيقتُلُك، ويقولُ إنه لم يتعمَّدْ ذلك!»

فجاهَدَ أورسو لكي ينهض، ثم حاولَ أن يسير، بل سار عِدَّةَ خُطىً؛ ولكنَّهُ توقَّفَ بعد ذلك، وقال:

«إنني لا أستطيعُ السير! دَعُوني واهرُبوا! وداعاً. يا مس ليديا! أعطيني يدكِ!»

فصاحت الفتاتان بصوت واحد:

«إننا لن نترُكَك!»

وقال براندولاتشيو: «إذا كنتَ لا تَقْوَى على السير فلا بُدَّ لي من حَملك! هيَّا. يا سيّدي الملازم.. تشجَّعْ! سيكونُ لدينا الوقتُ الكافي للنجاة عن طريق الوادي.. وسيتولى الكاهن إلهاءهم».

قال أورسو، وهو يرقد:

«كلا!.. دعوني! كولومبا! سألتُكِ بالله أن تُبعدي الآنسة نيقل عن هذا المكان!»

قال براندولاتشيو:

«أنتِ قوية، يا آنسة كولومبا. فاحمليهِ من كَتِفيه، وأنا أحملُهُ من رجلَيْه. ولْنَسِرْ به!.. حسن!.. إلى الأمام سِرْ!»

وَمَضَيا به مسرعين. بالرغم من احتجاجه المستمرّ. وكانت ليديا تسيرُ على أثرهما. وهي ترتعدُ من الخوف.

وإنّهم لكذلك إذ سُمِعَتْ طَلْقَةُ بندقيةٍ تَلَتْها خمسُ طَلَقاتٍ أو ستّ. وضاعف براندولاتشيو سرعته. وَحَذَتْ

كولومبا حَذْوَهُ، وهي لا تبالي بالأغصان التي كانت تضربُ وجهَها أو تمزّقُ ثوبها. وكانت تقولُ لصاحبتها:

«إخفضي رأسَكِ، إخفضي رأسَكِ، لئـلاّ تصيبَكِ رَصاصةٌ طائشةٌ!»

وبَعْـــدَ أن قَطَعُوا نحوَ خَمْسِمِئـــة خُطوةٍ، أعلن براندولاتشيو أنه لم يَعُدْ قادراً على السَّير. وتهالَكَ على الأرض بالرَّغمِ من تحميس كولومبا وتبكيتِها.

وسأل أورسو:

«أين الآنسة نيقل؟»

كانت الآنسة نيقل، وقد أفزعَتْها نيرانُ البنادق، تتوقفُ في كل لحظة بسبب كثافة النبات؛ وما لَبِثَتْ أن فقَدَتْ منهمُ الأثرَ، وظلّت وَحْدَها فريسةً للهمّ والوجَل.

قال براندولاتشيو:

«لقد تخلّفَتْ عنا، وما تاهَتْ، فالنساء يُعْثَرُ عليهنَّ دائماً! إسمع، يا أورس أنتون، كيف يملأ الكاهنُ الدّنيا دَوِيّاً ببندقيتك! لسوء الحظ لا يرى المرء شيئاً! ولا يؤدي تبادُلُ الرَّصاص، في الليل، إلى أذى!»

قالت كولومبا:

«صَهْ!.. إني لأسمعُ جَرْيَ حصان!.. لقد نَجَوْنا!»

كان هناك، بالفعل، حصانٌ يقتربُ منهم؛ فقد أفزَعَهُ صوت الرَّصاص فهامَ في الدَّغل على غير هدى. وردَّدَ براندولاتشيو:

«لقد نَجَوْنا!»

في مدى لحظة، لا أكثر، استطاع براندولاتشيو، بمساعدة كولومبا، أن يَجْريَ إلى الحصان، فيُمْسكَهُ من عُرْفِهِ، ويُدخلَ بين شِدْقَيْهِ حبلاً معقوداً يقوم مقامَ اللِّجام. ولما انتهى من ذلك قال:

«يجبُ أن نُخبرَ الكاهن!»

وَصَفَرَ صفرتَيْن، فأجابَتْـهُ صَفْرَةٌ بعيـدة، وكفَّتِ البندقيةُ الانكليزيةُ عن إسماع صوتِها الضخم. وقفزَ اللصُّ على ظهْرِ الحصان، وأركبَتْ كولومبا أخاها أمامه. ومن ثَمَّ مضى براندو، يُوَجِّه الفرس بيد، ويضم أورسو إليه، باليد الأخرى.

وعادَتْ كولومبا على أعقابها تُنادِي ليديا بأعلى صَوْتها، فلا تسمَعُ من يجيبُ على النداء. وبعدَ أن خبطت في الدَّغل بعض الوقت محاولةً أن تجدَ الطريقَ التي سَلَكَتْها، صادفَتْ رَجُلَيْن من القَنّاصة فصاحا فيها:

«مَنْ هناك؟»

قالت كولومبا بنبرةٍ ساخرة:

«هيه، يا سادة! ما هذه الضَّجةُ الكبيرة؟.. كم عددُ القتلى؟»

قال أحدُ الجنديين:

«لقد كنتِ مع اللصوص، ولسوفَ تأتينَ معنا!

– «كماتشاءان!ولكنَّ لي صديقةً هنا، ولا بُدَّ لنا من العثور عليها قبلَ أيِّ شيءٍ آخر!»

– «لقد تَمَّ القبضُ على صديقتِكِ، وستذهبين معَهَا لتناما في السجن!»

– «في السجن؟!.. سوف نرى!.. ولكنْ في انتظارِ ذلك أَوْصِلاني إليها!»

فقادها الجنديانِ إلى مُعَسْكر اللصوص، حيثُ جُمِعَتْ غنائمُ المعركة: وهي المِعْطَفُ الذي كان يستخدمُهُ أورسو كغطاء، وقِدْرٌ قديمةٌ وجرَّةٌ مملوءةٌ بالماء. وفي نفس المكان كانتِ الآنسة نيفل، التي عَثَرَ عليها الجنودُ وهي تكاد تموتُ من الخوف. وكانت تجيبُ بالدموع على جميعِ الأسئلة.

وألقت كولومبا نفسها بين ذراعَيْ ليديا، وهمست في أذنها: «لقد نَجَوْا!» ثم التفتَتْ إلى الجاويش وقالت:

«إنك تَرَى، يا سيدي، بما لا مجالَ معهُ لشك، أن

الآنسة لا تعرفُ شيئاً عمَّا تطلبونَهُ إليها! دَعُونا نعودُ إلى القرية حيث ينتظروننا بصبرٍ فارغ!»

– «سنقودُكما إليها، يا صغيرتي.. وبأسرع مما تَبْتغين! وهناك ستفسِّران معنى وجودِكما في الدَّغل، وفي مثلِ هذه الساعة، مع قُطّاع الطُّرق، الذين فَرُّوا من أيدينا!.. لست أدري أيَّ سِحرٍ يلجأ إليه هؤلاء الأوغاد!.. فهم يَسْحرونَ الفتياتِ فعلاً.. وفي أيِّ مكان يُوجد فيه لصوص، لا بُدَّ أن ترى بعضَ الحسان!»

– «إنك ظريف، يا سيدي الجاويش! ولكنَّك تُحْسِنُ صُنْعاً إن أنت تَنَبَّهْتَ إلى ما تقول؛ فهذه الآنسة قريبةٌ للحاكم، فلا يجب أن تَهْزَلَ معها!»

وأعطى الجاويش الأمرَ بالانسحاب. وأراد أحدُ القنّاصة أن يُمسكَ ذراعَ الآنسة ليديا، فدفعتْهُ كولومبا قائلةً:

«لا يَمَسَّنَّها أحد! أتعتقدُ أننا نشتهي الهرب؟! هيا، يا عزيزتي ليديا. توكئي عليَّ ولا تبكي كالطفلة! ها أنتِ قمتِ بمغامرة، ولكنها لن تؤدِّيَ إلى نهايةٍ سيئة! إنْ هي إلا نصفُ ساعة، ونكونُ جالستَيْن إلى مائدة العَشاء!»

قالتِ الآنسة نيقل بصوتٍ خفيض:

– «ماذا سيظنُّون بي؟»

– «سيعتقدون أنكِ تِهْتِ في الدَّغلَ، ولا شيء غير ذلك!»

– «مـاذا سيقولُ الحاكم؟ بل ماذا سيقولُ أبي خاصةً؟»

– «الحاكم، تقولين له أن ينظُرَ في أمور منطقته!.. أما والدُك.. فحسبَ الطريقة التي كنتِ تتحدثين بها إلى أورسو، أعتقدُ أنَّ لديك شيئاً تقولينه له!»

فضغطت الآنسة نيقل على ذراعها دون أن تجيب. وهمسَتْ كولومبا في أذُنها قائلةً:

– «خبريني.. أليس أخي جديراً بالحبّ؟.. ألا تحبِّينَهُ قليلاً؟»

قالت ليديا مبتسمةً، رَغْمَ اضطرابها:

«آه، يا كولومبا، لقد فضحتِ سري، بعد أن وثقتُ بكِ كلَّ الثقة!»

فطوَّقَتْ كولومبا خَصْرَها، وطَبَعَتْ قُبلةً على جبينها وقالت:

«أتَصْفَحين عني، يا أختي الصغيرة؟»

فأجابت ليديا، وهي تبادُلها قُبلةً بقُبلة:

«لا بُدَّ لي من ذلك، يا أختي الرهيبة!»

كان الحاكمُ والنائبُ العامُّ يَنْزِلانِ على نائب عُمدةِ بيترانرا. وقد جاء العقيد، الذي برَّحَ به القلقُ على ابنته، للمرَّة العشرين، يسألُهما عما جَدَّ من أخبار في هذا السبيل، عندما أقبلَ قَنّاصٌ أرسَلَهُ الجاويشُ ليحملَ الأنباء. فروى قصة المعركةِ العنيفةِ التي خاضها القنّاصةُ مع اللصوص، والتي إذا لم يقَعْ فيها قتلى ولا جَرحى فقد أدَّتْ إلى العُثور على قِدْرٍ ومِعْطفٍ وبنتَيْن هما، حَسبما قالَهُ هذا القنّاص، عشيقتانِ أو جاسوستان للّصوص.

وبعد أن قُدِّمَتِ الأسيرتانِ على هذا النحو مَثَلَتا بين تلك الحاشية المسلَّحة. وفي الامكان تصوُّرُ رزانةِ كولومبا، وخجلِ ليديا وذهولِ الحاكم، وفرحةِ الكولونيل ودَهَشِهِ. وعمدَ النائبُ العامّ بكثير من الخُبْث، إلى التلذُّذَ بإجراء شبهِ تحقيق مع ليديا المسكينة، لم ينتهِ إلا عندما ضاقَ به ذَرْعُها ففقدَتِ السيطرة على نفسها.

قال الحاكم:

«يبدو لي أن في وُسْعِنا أن نُخْليَ سبيلَ الجميع؛ فهاتانِ الآنستانِ قد خرجتا للنُّزْهَةِ في هذا اليومِ الجميل،

وهو أمرٌ جدُّ طبيعيّ، فالتقتا صدفةً بشابٍّ جريحٍ لطيف، وهذا شيء طبيعي أيضاً!»

ثم أخذ كولومبا على حِدَة وقال لها:

«تستطيعينَ، يا آنسة، أن تُحيطي أخاكِ علماً بأن القضيةَ تتحوَّل إلى مصلحته، أكثرَ مما كنتُ أتصوَّر. فإن فحصَ الجثَّتين وشهادةَ العقيد يُثبتان أنه لم يفعلْ أكثر من الردّ، وأنه كان منفرداً ساعةَ المعركة. سيُسَوَّى كلُّ شيء على أفضلِ وجه. ولكنَّ عليه أن يُغادرَ الدَّغَلَ ويستسلم!»

كانتِ الساعةُ تناهزُ الحاديةَ عَشْرَةَ عندما جلس العقيدُ وابنتُهُ وكولومبا إلى مائدة العشاء. كانت كولومبا تأكل بشهية وهي تسخرُ من الحاكم والنائب العام والقَنّاصة. أما العقيدُ فكان يأكلُ دون كلامٍ، ناظراً باستمرار إلى ابنته، التي لم تكن ترفعُ نظرَها عن الطَّبَق. وقال لها آخرَ الأمر، بالانكليزية وبصوتٍ لطيف، ولكنه ينطوي على كثير من الجد:

«ليديا! إذن فقد اتفقتِ مع ديلاريبيا على الزواج؟!»

فأجابت وقد احمرت وجنتاها:

«نعم، يا والدي!.. ابتداءً من اليوم!»

ثم رفعت عينيها فلم ترَ على وجه أبيها أثراً للغضب،

فقامت وارتمت بين ذراعَيْه وراحت تقبِّله. فقال العقيد:

« نِعْمَ ما فعلتِ، فهو شابٌّ طيب!.. ولكنْ أقسِمُ بالله أننا لن نسكنَ بلدَهُ اللعين. وإلا فإني أسحب موافقتي! »

قالت كولومبا التي كانت تنظرُ إليهما:

« إنني لا أعرفُ الانكليزية، ولكني أراهنُ على أنني فهمتُ ما تقولان! »

أجاب العقيد:

« كُنّا نقولُ إننا سنأخُذُك في رحلة إلى إيرلندة!

– « بكلِّ سرور!.. وسأكونُ الإشبينة! »

٢٠ . الخروج من السجن

بعد أشهرٍ من حادث الطّلْقة المُزْدَوِجة، التي بثّتِ الذُّعْرَ في منطقة بيترانرا، حسب تعبيرِ الصُّحف، خرج من باستيا، عصرَ يومٍ من الأيام، شابٌّ يركبُ حصاناً، وذراعُهُ اليُسرى معلقةٌ في رقَبَتِه. وكان متوجِّهاً إلى قرية كاردو المشهورةِ بنَبْعها الذي يَنْتَجعُهُ الناسُ المُرَفَّهون، في الصيف، ليتذوّقوا مياهَهُ العَذْبة. وكانَتْ في صحبته سَيِّدةٌ طويلةُ القامة، بارعةُ الحُسْن. تمتطي فَرَساً صغيراً أدهم، لو

رآه خبيرٌ لأعجبَهُ فيهِ اتّساقُ التكوينِ والقوة؛ ولكنَّ أُذُنَهُ، للأسف، مشقوقةٌ، من أثرِ حادثٍ غريب.

حينما وصلا إلى القرية، قفَزَتِ الشابَّةُ بخفّةٍ إلى الأرض. وبَعْدَ أن أعانَتْ رفيقَها على التَرَجُّل أنزلَتْ خُرْجاً ثقيلاً، وسلَّمتِ الفرَسَيْن إلى فلاّحٍ كان معهما. ثم سارا في اتجاه الجبال، سالكيْن دَرْباً صَعْبَةَ المُرْتَقى، لا تُؤَدّي، كما هو ظاهر، إلى أيِّ مَسْكن. وكانتِ المرأةُ تحملُ الخُرْجَ، أما الرجلُ فيحملُ بندقيةً مزدوجة.

وعند مدرج من مدارج جبل « كويرسيو » تَوَقّفا عن التصعيد، وجلسا على الحشائش. وكان يَلُوحُ أنهما ينتظران شخصاً ما. ولم يَمْضِ سوى وقتٍ قصير حتى خَرَجَ من الدَّغَلِ كَلْبٌ نادَتْهُ المرأةُ باسمِهِ « بروسكو ». فجرى نحوَها، وراح يلاطفُها ورفيقها. ثم تبعَهُ رجُلان مُلْتَحيان، يَرْتديان ملابسَ رثّة، ولكنهما يحملان أسلحةً من أجودِ الأسلحةِ الأوروبيـــةِ. ولم يكُنِ الرجـلانِ سوى براندولاتشيو والكاهن.

قال براندولاتشيو:

« هيه، يا أورس أنتون! ها قد انتهتْ قضيَّتُك بمنع المحاكمة.. تهانئي! لقد ساءني ألاّ يكون المحامي في الجزيرةِ لأراه هائجاً!.. وذراعُك؟ »

– « سيُنزَعُ الرّباط عنها بعد خمسةَ عشَرَ يوماً! غداً سأسافرُ إلى ايطاليا، يا عزيزي براندو؛ وقد حَرَصْتُ على أن أودِّعَكَ أنت وسيادة الكاهن! »

وقد عَرَض أورسو عليهما أن يساعدَهما في الذّهاب إلى سردينيا وتَرْكِ هذه الحياة الشاقة. ولكنهما أبَيا لأنَّ هذه هي الحياةُ التي تروقُ لهما وقدَّم إلى براندو بندقيَّتَهُ كهدية؛ أما الكاهن فقد طلب كتاباً لهوارس ولما عرضَ عليهما مالاً رفضا رفضاً باتاً لأن المالَ لا قيمةَ له في الماكي. وهما لا ينقصُهما شيء، ما دام مُزارِعُه سيزوِّدُهما بالخبز والبارود. ثم ودَّعهما أورسو وأخته وقدَّما إليهما الزادَ الذي حملاه في الخرج؛ وعادا إلى كوردو؛ بينما اتَّجَهَ اللِّصّانِ إلى الجبال.

٢١. هيكل إنسان

في صباح يومٍ بهيجٍ من أيام نَيْسان خرج العقيدُ نيفل وابنته، التي اقترنت قبل ذلك بأيام، وأورسو وكولومبا. خرجوا جميعاً من مدينة پيزا، لزيارة منطقة الآثار ورؤية ناووسٍ اكتُشِفَ حديثاً. وكان جميعُ الأجانب يتوجَّهونَ لرؤيته. ولما نَزَلوا إلى ذلك المَدْفنِ القديمِ أخرج أورسو وزوجته، الأقلامَ والأوراق. وراحا يحاولان نَقْلَ الرُسومِ الملوَّنةِ التي تغطّي الجُدْران. أما العقيد وكولومبا فقد ذهبا

يتنزَّهان في الأماكن القريبة.

واقترح العقيد أن يتغدَّيا في مزرعة هناك، لأن الرَّسّامين لن ينتهيا في وقت قريب. وتوجَّها إلى المزرعة وهما يتبادلانِ النكات. ولما وصلا وجدا هناك نبيذاً وقشدة وفريزاً. وراحت كولومبا تساعدُ الفلاحة في قَطْف الفريز، بينما جلس العقيد يحتسي كأساً من النبيذ.

وفي منعطَفِ أحد الممرّات شاهدَتْ كولومبا رجلاً عجوزاً يجلس في الشمس على كرسي من القش. كان الشيخُ يبدو، بخدَّيْه الأَعْجَفَيْن وعينَيْه الغائرتين، في حالةٍ شديدة من المرض؛ بل كان بنحوله المفرط وسكونهِ المتواصل، وشحوب وجههِ وجمودِ نظراتِه، أشبَهَ بالجثة منه بالكائنُ الحي.

وقفت كولومبا تتأمَّلُهُ بفضولِ غريب عِدَّةَ دقائق، حتى إنها لفتت انتباه الفلاحة فقالت لها:

« إن هذا الشيخَ المسكينَ هو أحدُ مواطنيك، يا آنسة؛ لأنني عَرَفْتُ، من لهجتك، أنّكِ كورسيكية. لقد أصيبَ في بلادِهِ بنكباتٍ فادحة، إذ مات ابناه ميتةً رهيبة. يقال إن أهل بلادك – وأرجو المَعْذِرة يا آنسة – لا يرحمونَ بعضَهم. فقد وجدَ هذا المسكين نفسَهُ وحيداً، بعد أن نزلت به تلك المصيبة. فجاء إلى پيزا ليعيشَ عند قريبة له،

هي صاحبة هذه المزرعة. إنه شبه مجنون.. وقد ضايق هذا قريبتَهُ، لأنها تستقبلُ كثيراً من الزائرين، فارسلَتْهُ إلى هنا! إنه لطيفٌ وغيرُ مزعج على الإطلاق، فهو لا يتفوَّهُ بأكثر من ثلاثِ كلماتٍ في اليوم! لقد فقد عقلَهُ.. والطبيبُ يزورُهُ كلَّ أسبوع.. وهو يقول إنه لن يعيش طويلاً!.. إنك لتُحسِنينَ صُنعاً لو كلَّمْتِهِ بالكورسيكية فقد ينتعشُ إذا سمع لغة بلاده!»

فقالت كولومبا بابتسامة ساخرة:

« سوف نرى!»

واقتربت من الرجل حتى حجبَتْ عنهُ الشمس، فرفع الأبلهُ رأسَهُ وحدَّقَ في كولومبا؛ وما لبث أن مرَّ بيده على جَبْهته، ثم أغمضَ عينيه؛ وعاد ففتحهما على اتساعهما وحاولَ أن يَمدَّ يده، فلم يستطع. وانحدرت آخر الأمر من عينيه الدموع. قالت الفلاحة:

« إنها المرَّةُ الأولى التي أراهُ فيها على هذه الحال!» ثم خاطَبَتْهُ قائلةً: « إن الآنسة من بلدك، وقد جاءت لتراك!»

فصاح بصوت مخنوق:

« الرحمة! الرحمة! ألم تكتفي؟.. لماذا الاثنان؟»

– « كنت أريدُ الاثنين معاً! لقد قطعتُ الفروع، ولو لم يكن الاصل عفِناً فاسداً لاقتلعتُه! إني لا أشفقُ عليك!»

فأطلق العجوزُ صرخةً وانحدر رأسُهُ على صدره.

عندما غادرتْ كولومبا المزرعةَ، في ذلك اليوم، ظلَّتِ الفلاحةُ تتابعُها بنظرها بعضَ الوقت؛ ثم قالت لابنتها:

« أتَرَيْنَ إلى هذه الفتاة الجميلة؟ إنني واثقة من أنها تُصيب بالعين.»

-إنتهى-

فهرست

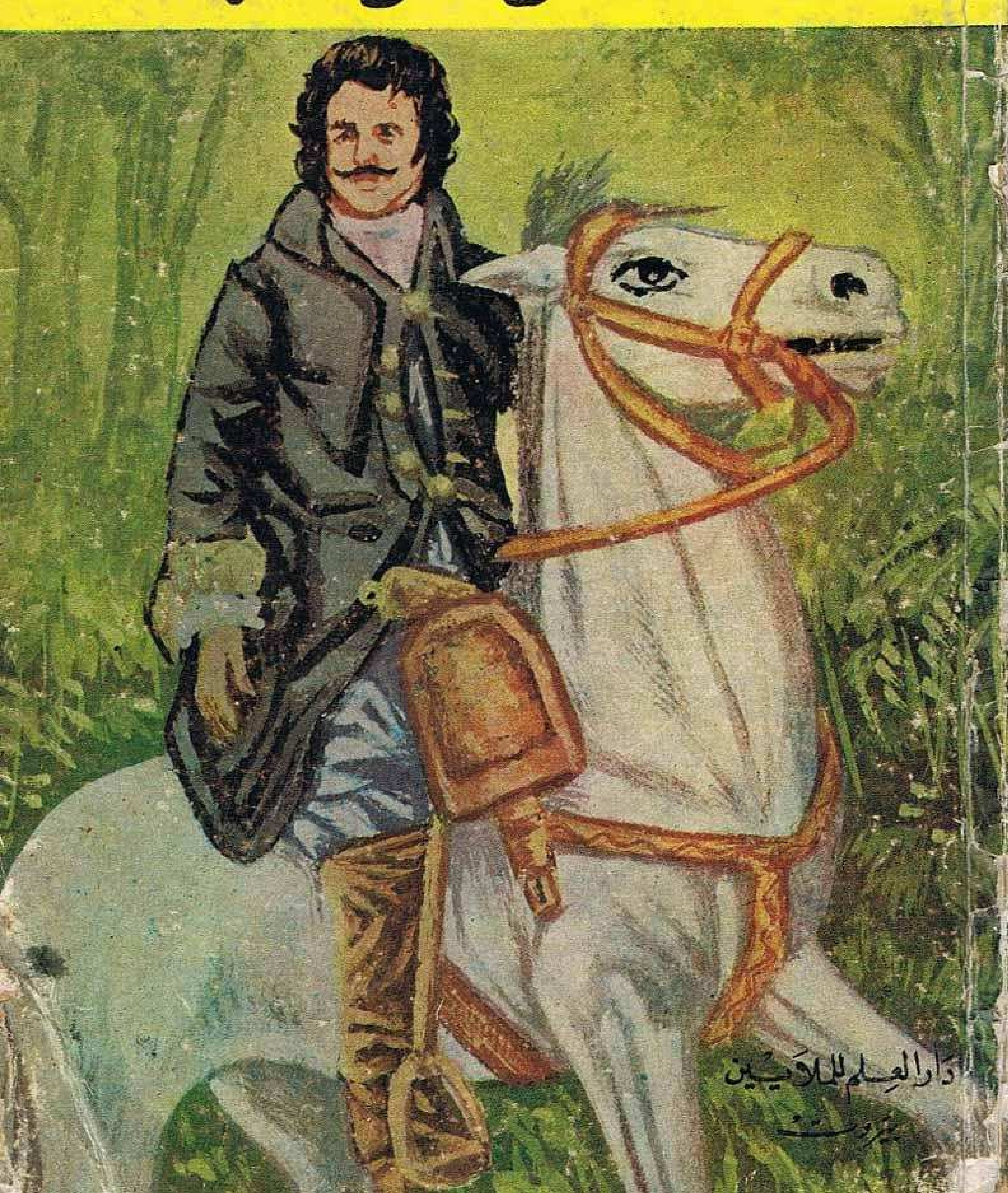
المكتبة العالمية للفتيان والفتيات

صدر منها:

١ - روبنسون كروزو
٢ - كوخ العم توم
٣ - آخر أيام بومباي
٤ - جزيرة الكنز
٥ - البؤساء
٦ - دايفيد كوبرفيلد
٧ - حول العالم في ثمانين يوماً
٨ - قصة مدينتين
٩ - أوليفر تويست
١٠ - الزنبقة السوداء
١١ - القلعة
١٢ - مرتفعات ويذرنغ
١٣ - الفرسان الثلاثة
١٤ - ايفنهو
١٥ - دون كيشوت
١٦ - بائعة الخبز
١٧ - أحدب نوتردام
١٨ - طفل من غير أسرة
١٩ - كولومبا

المكتبة العالمية
للفتيان والفتيات

كولومبا



دار العلم للملايين
بيروت